

الجزء الأول

باب البحر

(أحداث من قلب الشارع المصري)

تصميم غلاف
كريم وهيب

مجموعة قصصية



شكر خاص لأعضاء جروب ساحر الكتب وللقائمين عليه

" مينا ، محمد سيد (الدوك) ، محمد رضا ، محمد (أبو دهم) ، إيلو ، ياسمين ، سارة إيمان ، منى ، دينا ، أمل ، مروة ، شيماء ، رحمة ، ميرو، سوما ، عمرو ، eng mony"

إهداء خاص وشكر لرفقاء الكفاح

مادو الجندي ، نيرو حسن ، الكابتن أحمد ، أحمد ناصر ، أحمد أسامة ، طه السناباري ، سارة شاهين ، أماني عفيفي ، سلمى حسني ، إسراء عادل ، دينا السيد ، محمد مسعد دكتور حازم ، دكتور الفقى ، محمد سينا ، مينا طاقة ، حسن عبده ، ربيع

باب البحر

قصص مستوحاه من قلب الشارع المصري

باب البحر

ليلة الخميس ،،،

أجلسُ وحيداً داخل مقهى يستضيفني للمرة الأولى في حياتي ، هرباً من ذلك المقهى الذي أعتدتُ الجلوس فيه دائماً ، والذي أكتسبتُ فيه أيضاً شهرة واسعة بين زبائنه والعاملين فيه تخطت شهرة صاحب المكان نفسه ، تنهالُ على رأسي التحيات والسلامات كالسيل المنهمر فور دخولي من باب المكان ، تتوالى السلامات تباعاً كأنفجارات القنبلة العنقودية المتتالية كلما هَلَّ علينا زائر جديد فأشعر وكأنني فنان مشهور بين زبائين ذلك المقهى ، حب الناس كنز ورزق لا يعطيه الله إلا لمن يُحب ويرضى ، لكن ذلك الحب أصبح يُعيق تركيزي وتسلسل أفكاري وأنا أقوم بعملي الذي يحتاج مني إلى تركيز عميق ، أنا لا أذهب إلى هناك للتعرف على أصدقاء جُدد ليزيد عددهم على صفحتي بموقع التواصل الأجتماعي أو أذهب وبصحبتي فتاة متبرجة تجذب تجاهنا أعيُن الحاضرين ، أنا لا أذهب إلا للعمل الذي يحتاج مني لصفاء ذهن وتركيز شديد ، لذلك هربت إلى ذلك المقهى الجديد أو " الكَافية " كما يُلقبه أعز أصدقائي الذي رشحَهُ لي لعلي أجد فيه بيئة جديدة ومناخ خصب لنمو أفكاري .

أجلس بصحبة أقلامي وأوراقي بعدما إتخذتوا قراراً منذُ فترة قصيرة بكتابة مجموعة قصصية جديدة تضم أحداثاً تحمل عبراً ومواعظ يستفيد منها الناس ، أبحث في أعماقي عن الواقعية وليس عن الخيال المُطلق الذي يُخدر عقول القارئين ويُبعدهم عن الواقع الحقيقي المنغمسين فيه .

أنوار هادئة ، موزعة بإحكام يتناسب مع الحالة العامة التي يعيشها معظم رواد الكَافية في ذلك التوقيت ، على يميني شاب لا يمتلك من الرجولة سوى هرمونتها ، يضع حول رأسُه وشعرُه الخشن الأقرب إلى سلك المواعين " سورتيت " أسود رفيع ربما أستعارُه من أختِه ليضمن بقائِه تحت سيطرتُه في المكان المُحدد لهُ ، جسدُه رفيع وشعرُه خشن منتفش فيبدو كزعافة السقف ، يرتدي تي شرت - ربع كوم - ليُظهر وشم العقرب المدقوق على كتِفه ، تجلس أمامه فتاة سمراء إلى حد كبير ، شعرها الأصفر المقزز عَقدَ قرانُه على اللون الأسود فتاهت خُصلَها الخشنة بين اللونين ليصبح مظهرها أكثر أزعاجاً مما كان ، تصتنع الرومانسية بصورة تجعلك تتقيء في وجهها أنتقاماً منها على أداءها المُفتعل ، ترتدي سلسلة من الذهب الصيني رخيص الثمن ، تحمل في نهايتها حروفاً تُكون أسم " Nana " لكن أظنُ أنها تُحاول الهروب من أسمها الحقيقي الذي لن يبتعد كثيراً عن " نعيمة " ، الكذب

والتمثيل المُبالغ فيه يظهران بقوة على ملامح وجهها المفلطح ولكن تلك الحقيقة غائبة عن ذلك النحيف الجالس أمامها متقمصاً دور تامر حسني في جميع أفلامِه دفعة واحدة ، على يساري رجل تجاوز العِقد السادس من عُمره ، يرتدي قميص أحمر وسلسلة فضية على شكل جنزير ، صبغ ما تبقى من شعر رأسه باللون الأسود وكأنه أراد أن يسترد جزءً من شبابه ، يبدو أنه يعيش مراهقة مُتأخرة مع فتاة لم تتجاوز عامها الخامس والعشرين ، رمقتهُ بطرف عيني فوجدتُه يُخرج علبة مُغلفة بورق الهدايا اللامع ، مدَّ يدهُ وأعطاها لتلك المراهقة الصغيرة ففتحتها ، شهقت واتسعت عيناها فرحاً قبل أن تطبع قُبلة سريعة على صدغِه الأيمن مُردده " شكراً يا أحلى بودي في الدنيا " ابتسم ذلك العجوز ليكشف عن طقم الأسنان الجديد الذي أنقذُه من فكرة أكل الطعام اللدِن الذي لا يحتاج إلى مضغ ، أنتقلت بعيني إلى طرابيزة أخرى تجلس عليها فتاة تبدو في حالة توتر شديد ، تنظر إلى ساعة يدها كل ٣٠ ثانية تقريباً ، تتلوى ملامحها وتتزايد في الأنكماش كلما تقدم عقرب ساعتها إلى الأمام ، أخرجت هاتفها الخلوي ، أستدعت رقماً ما قبل أن تضع الهاتف على أذُنها وهي تُحرك قدميها بتوتر ، زفرت ثم ألقت الهاتف داخل حقيبتها ، طلبت من النادل الشيك الخاص بالحساب فهي تَود الرحيل عن المكان ، على مسافة بعيدة إلى حد ما طرابيزة منعزلة تجلس عليها فتاة تبدو في مراحل التعليم الجامعي ، قليلة الحجم ، لا تتعامل مع وجهها على أنه حائط تُلطخُه بالبويات فقط تضع بعض من مساحيق التجميل الخفيفة التي تعطيها شكلاً جذاباً ، تجلس أمام شاب وسيم إلى حد ما ، يبدو أنها المرة الأولى لها في مثل هذة اللقاءات فالتوتر ظاهر على وجهها البريء وأطرافها لم تتوقف لحظة عن الأرتعاش ، تبدو صادقة معه في مشاعرها وفي حبها الذي يقبع داخلها ، أقترب منها ذلك الوسيم ومسك يدها فنتفضت وكأن عقرب سام قد لدغها ، نظرة لهُ بعتاب وكأنها تلومُه على تصرفِه الأهوج ، نظر لها وابتسم ، تحدثت عيناه عن حُبه الصادق وعن أشتياقِه لإرادة القدر ، لتونير ليلهُ بوجهها الجذاب شبيه القمر .

من بعيد تحديداً أمام باب الكافية أرى صديقي " وسيم " قد حضر ، على وجهه ابتسامة أعرفها جيداً ، أنه يحمل في جعبتِه أمراً ساراً ، رفعت يدي له حتى يكتشف مكاني ، ها هي عيناه تلتقي بعيني ، تنبسط عضلات وجهه قبل أن يُهرول تجاهي .

- صديقي الكاتب المغمور اللي محدش يعرفه غيري .

صافحني قبل أن يجلس بجواري ، بَدَأنَا بإلقاء تلك الأسئلة ذات الديباجة المحفوظة والتي نستمع إليها في أول خمس دقائق من لقائنا بالأصدقاء والأقارب الذين لم نلتقي بهم منذُ فترة طويلة والتي تتلخص في السؤال عن الصحة والعمل والبيت والأولاد إن وجد ، ولا ننسى أن نترك فخذنا لقبضة من معنا كلما طرح علينا سؤال ، عادة غريبة حقاً لا أجد لها أي تفسير على الإطلاق .

- قولي بقى يا كبير عملت إيه في المجموعة القصصية بتاعتك ؟؟
- ولا حاجة .

- ليه كدة ؟؟!!
- ما أنت عارف المجموعة القصصية دي عاوزها واقعية ، أحداث حقيقية من قلب الشارع وقلب المجتمع اللي أحنا عايشين فيه .
- ماشي يا عم الواقعي ، عموماً أنا جيلك علشان الموضوع ده .
- بجد ، طب قول بسرعة .
- بص يا سيدي ، في واحد معرفة جدع أوي أتكلمت معاه في الموضوع بتاعك ، قولت لُه ليه واحد صاحبي بيكتب وعاوز يعمل مجموعة قصصية جديدة فيها قصص وأحداث واقعية من قلب الشارع والمجتمع ، هو أداني معاد يوم السبت مش اللي هو بعد بكرة ده لا اللي بعديه يكون حضرلك شوية ناس عندهم مشاكل ومأسي يحكولك عليها واللي يعجبك حط حكايته في المجموعة بتاعتك ، واللي ميعجبكش ولا أكنك سمعت منه حاجة ، إيه رأيك بقى في دماغ أخوك .
- والله العظيم أحلى خبر سمعته كمان .
- أي خدمة .
- وهنقابله فين بقى الراجل ده .
- باب البحر .
- مين !!
- باب البحر .
- دا إيه ده ؟؟
- شارع في وسط البلد هو شقتُه هناك .
- خلاص ماشي أتفقنا .
- تمام ، بما أني بقى جايبلك خبر عسل زي ده أنا هشرب بوريو على حسابك ، ماشي .

ابتسمت في رضا .

***

يوم السبت صباحاً .

وصلنا إلى هناك بعد عناء يوم طويل في المواصلات العاملة خاصتاً تلك المواصلة الأخيرة التي استقلناها رغماً عنا ، لا يوجد بديل أمامنا سواها ، هكذا أقنعني صديقي ، أجزاء من صاجٍ بالٍ تجمعت مع بعضها بواسطة فنيين مَهَرَة لتُكون ما يُسمى في بعض المناطق بالـ " مشروع " وفي مناطق أخرى " عشة " ، لكن الصفة المشتركة بين معظم سكان باقي المناطق بأنها تُنطق " مكروباظ أو ميكروباص " حسب تلك المنطقة التي تقطن بها ، سيارة تختلف عن كافة المواصلات التي رأيتها طيلة حياتي حتى السائقين غربيين الأطوار لأبعد حد ممكن ، لا يتحدثون مع أحد إلا وأعوج فمهم أمَّا ناحية اليمين أو اليسار بالإضافة إلى صوتهم الذي يغلظً فجأة وكأنهم يريدون إرهاب كل من يستقل سيارتهم ، كل

هذا لا يهم ، المهم أننا وصلنا إلى شارع ضمن شوارع أبنة المعز لدين الله الفاطمي ، يحمل أسماً ليس له علاقة بواقعُه " باب البحر " ، لا يملك بحر ولا يملك هواءً نقياً محملاً باليود ، لا يحُجُ إليه المُصيفين كل عام ، لا مجال لبائعي الفريسكا وعمال غرز الشماسي في الرمال للعمل هناك
فقط أنه مجرد أسم يحملُه شارع يقبع في حي شعبي وسط العاصمة .

أقتربنا من نَّاصيَة تحمل لوحة زرقاء مربعة ، باهتة الألوان ، كُتب عليها بخط أبيض " شارع باب البحر " إذاً هذه النَّاصِيَة هي بدايتُنا ، شارع متوسط العرض يسمح بمرور ثلاث سيارات ملاكي في آنٍ واحد ، في بدايتُه وعلى يمين تلك النَّاصِيَة التي تحمل اللافتة جامع متوسط الحجم ذو مأذنة قليلة الأرتفاع ، مكتوب على جدرانِه الصفراء من الخارج بخط أبيض جميل " لَلَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " ، على جانبي الشارع رُصَّت بنايات متوسطة الطول ومحلات تجارية وورش ، كشك صغير يحمل لافتة خشبية عملاقة تعدت عرض الكشك نفسه ، كُتب عليها " بقالة سعيد وشركاه " هل هذا الكشك الضئيل المُصاب بأنيميا السلع الغذائية يحتاج إلى شركاء أم هذه الكلمة فقط من أجل ديباجة باتت مألوفة لدى الجميع ، بالقرب منهُ مصمط صغير أستعان صاحبُه بأسم تُجاري يتعلق في الأذهان ويجلب لهُ الزبائن من كل مكان " مصمط أكسسوارات العجل " ، لافتة قديمة من قماشٍ مُهْتَرِئ تقطع عرض الشارع ، مُعلقة بأحبال متدليه من أسطُح البنايات ، يُهنأ فيها أحد المسئولين بالتزامن مع أقتراب أنتخابات نواب مجلس الشعب سكان هذا الشارع بحلول شهر رمضان المُعظم مُتمنياً أن يُعيدُه الله عليهم باليُمن والبركات ، نتَرَجّل أنا وصديقي داخل شارع " باب البحر " أُشاهد كل شيء بعناية فائقة ، أُحاول رسم كل شيء أمامي في ذهني بأسلوب أدبي رشيق يتناسب مع ذوق القاريء العام ، فأنا كاتب أميل إلى مدرسة الوصف الدقيق ، هناك شاب يتتبعنا منذُ دخولنا باب البحر ، شاب غريب الأطوار ، ذو لحية وشعر كثيف منكوش ، يرتدي بنطال جينز وقميص قديم ، يقبض بأسنانُه على خلّة أسنان رفيعة لا أجد داعي لها ، لا يهم ، المهم هو أنجاز ما جئت من أجلُه ، بالقرب منا عربة مُخصصة لبيع العصير ، ترجع إلى عصر المماليك ، تُدفع باليد ، خلفها يقف بائع العصير في زيه الأقرب إلى زي ممثلين مسلسل " باب الحارة " ، اقتبس منهم كل شيء حتى الشارب العملاق وربما لو تكلم لسمعت منهُ كلمة " زلمة أو مهضوم " أو على الأقل المد المُبالغ فيه المُصاحب لكل نهايات الجُمل ، ، مؤخرات عملاقة ألتصقت ببعضها البعض أثناء إنحناء أصحابهن من سيدات وفتيات بحثاً عن أجود أنواع الخضار والفاكهة التي تفترش أحدى الأرصفة .

لايزال ذلك الشاب غريب الأطوار يتتبعنا وكأنه مخبر كلفَهُ رئيسُه المباشر بذلك حتى وصلنا إلى باب خشبي قديم ، شاهق الطول بالنسبة لباب منزل ، نحتاج إلى صعود ثلاثة درجات من السلالم المتهالكة ، بجوارِه حائط رُسِمَ عليه صورة جرافتي للمسجد الحرام ، نُقش تحتها بالخط العثماني " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ " ، " حج مبرور وذنب مغفور يا حج سمير "

- بص بقى يا عم ، هي دي بقى العمارة اللي هنقابل فيها الراجل اللي كلمتك عليه.

- طب يلا نطلع .
- أتقل بس ، هروح أجيب سجاير وأجيلك .

قبضتُ على ساعدُه قبل أن ينصرف .

- وسيم ، متهرجش ، أنت هتسبني لوحدي هنا .
- في إيه يا جدع ، هو أنا سايب عيل صغير ، هما ٣ دقائق هجيب سجاير وأجي .
- بسرعة يا وسيم الله يباركلك .
- طب سيب أيدي علشان أمشي .

تركني فريسة للقلق والتوتر وانصرف ، إذا أصابني أي أذى لن أترك رأسُه إلا وهي مفصولة عن جسدُه ، حاولت أن أتجول بعيني في المكان حتى تمر الثلاثة دقائق دون أن أشعر بهم ولكن فجأة اصتدمت عيني بوجه ذلك الشاب غريب الأطوار ، لا يزال يضع خلّة الأسنان في فمه ، ينظر لي وكأنني جاسوس يعرف هو حقيقة أمرِه ، يبعُد عني خطواط قليلة ، لم أعد أستطيع السيطرة على أقدامي التي بدأت ترتعش رغماً عني ، لماذا يتتبعني ؟ لماذا أنا بالذات ؟ ، أرتفع منسوب الأدرينالين في جسدي مع أقترابُه مني حتى أصبح أمامي مباشرةً .

- إيه يا عسل واقف هنا بتعمل إيه ؟
- أنا ؟

أخشن صوتُه " أمال أمي ، واقف هنا بتعمل إيه ياض ؟ "

- مستني واحد صاحبي .
- آه مش العيل الطري اللي كنت بتشد إيدُه من شوية .
- هو بغض النظر عن كلمة الطري دي .
- وبتعملوا إيه بقى هنا أنت وصاحبك .
- جيين نزور واحد معرفة .

نزع الخلّة من بين أسنانُه وألقاها بعيداً وسط شعوري بتوتر لا يوصف وأحساس بأرتفاع منسوب الخطر العام ، عقلي الباطن يرفض المشهد الذي أتخيلُه الأن وأنا أقف في وسط الشارع بملابسي الداخلية بعد تنظيفي تماماً من كل شيء تحت تهديد سلاح أبيض غاشم .

- أنا مش مرتحلك يلا .
- ليه بس ؟؟ أنا عملت إيه ؟؟
- أنت حكومة ياض ؟
- حكومة !! لا أنا مش حكومة ، أنا أديب .

- مين !! أدي إيه ؟؟
- أديب ، أنا أديب .
- آه ، قريب الأستاذ عمرو يعني ؟ بتاع مصر اليوم ؟
- أولاً هو أسمه القاهرة اليوم ثانياً هو ساب البرنامج ثالثاً بقى وده الأهم أنا مش قريبه ، أنا شغلي أديب مش أسمي أديب ، بكتب روايات وقصص وكدة .

رفع رأسه إلى أعلى وفتح فمُه عن أخرُه .

- آآآآآه ، قولتلي بقى مؤلف ، ومالُه ميضُرش ، أنا كمان رائد .
- شرطة ولا جيش ؟
- فضاء ، رائد فضاء ، مش أنت مؤلف ، أنا بقى رائد فضاء .

هذا الشاب يسخر مني ولا يُصدق حقيقة أمري ، بدأ يحوم حولي كفهد مفترس سينقض على فرس النهر الذي لن يستطيع النجاة منه ، " بسم الله الذي لا يضر مع أسمه شيئاً في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم " أُرددها بصوت خافت رغبتاً مني في أن يُنجني الله عز وجل من ذلك الشاب الغريب ، حمداً لله حضر وسيم .

- إيه يابني في إيه ؟
- معرفش الراجل ده بيسألني أحنا رايحين لمين .
- رايحين لابن خالي .
- إيه الفخر اللي أنت فيه ده ؟؟ مين ابن خالك ده محمد حماقي مثلاً ؟
- لا مكسيكي .

صُعِقَ الشاب حينما سَمِعَ تلك الكلمة التي كانت بمثابة تعويذة سحرية جعلتُه يرتبك وتتقطع كلماتُه كالسيارة التي في حاجة لتغير شمعات الإحتراق " البوجيهات " .

- أن.. ، أن.. ، أنت.. ، أنتم قرايب مكسيكي .
- ابن خالي يا جدع .

بصوت أجش أخترق أُذن كل ساكني الشارع .

- لمؤخذة يا رجالة ، لمؤخذة يا أستاذ أديب ، مكسيكي ده رئيس المنطقة هنا ، أنا آسف يا أستاذ أديب والله اللي ما يعرفك يثبتك .
- يا أبني أديب دي وظفتي مش أسمي .
- لا بس أنت برضو متغير كتير عن التلفزيون .
- يابني عليه الطلاق مش أنا .

- أسيبكم أنا بقى ، سلمولي كتير على مكسيكي دا خيره عليا وعلى المنطقة كلها ، ياما أدانا فلوس كتير ، هي فلوس حرام بس كتير أوي يلا سلام أنا بقى .

أنصرف ذلك الشاب الغريب في اللحظة التي قبضت بيدي على ياقة وسيم .

- أنت جايبني لهجام .
- يا عم وأنت جي تتجوز أخته ، مش المهم القصص ، ده اللي هيجبلك من قلب المجتمع وقاعُه كمان ، تعالى بس تعالى .

صعدنا إلى شقة ذلك المكسيكي ، جلسنا معه نص ساعة تقريباً ، بالتحاور معه أكتشفت أنه شاب مصري ذكي ، صاحب مبدأ ، رجل أعطاه الله قلباً حديداً لا يخشى سواه ، قدراته الفكرية تؤهلُه ليعتلي مناصب مرموقة في دولة تفتقر إلى الكوادر في مؤسساتها بسبب ما يسمى بتعيين أبناء العاملين ، دور مؤسسات الدولة في إهمال كوادرها دفعُه إلى أستغلال مواهبه بشكل مختلف يتنافى مع الأخلاق وإصلاح المجتمع وذلك بسبب الأستمرار في صراع الحياة المرير ، لم يجد أمامه حل أخر سوى ذلك الحل الذي ينتقضُه فقط كل أطياف المجتمع ويُلقبُنه " بالبلطجي " الذي يجب أقصاءُه دون النظر إلى لُب المشكلة وما هي الظروف التي دفعتُه إلى ذلك .

بعد نصف ساعة أستمعنا إلى وقع أقدام مرتعشة بالكاد تستطيع الخُطى ، توجهت أنظارنا لا إرادياً تجاه صوتها ، أنه شاب في أوائل الأربعينات ، على وجهه يتجسد غضب الله ، ملامحُه تصرخ آلماً من هول ما هو فيه ، يبدو أنه لا يمتلك أي ذوق في أختيار ملابسُه الغير مُهندمة ولا يدري كيف يظهر بمظهرٍ أنيق ، قميص كبير تملاءُه الكُسرات وبنطال جينز لم يُغسل تقريباً منذُ أن ابتاعُه ، عائلة كبيرة من الغبار كونت نفسها على سطح حذائُه ، يمتلك رأس كبيرة ، منبعجة أنبعاج غريب كرأس الشخصية الكارتونية " megamind " يبدو كعيب خُلُقي من الوهلة الأولى لكن ما هي إلا قدرة الله في خلقِه ، يُغطي تلك الرأس المنبعجة شعر كث ، خشن كشعر الزنوج ، يرتدي نظارة طبية بعدسات ذات لونٍ غامق ، تسّمْرَ مكانه حينما توجهت أنظارنا إليه كأنه يخشانا ، تبادلنا النظرات دون أي رد فعل يُذكر ، تحدث " مكسيكي " صاحب الدِيار مُرحباً " تعالى يا مصطفى ، تعالى متخفش " ، يبدو أن " مكسيكي " على علاقة وثيقة بذلك الشخص المرتجف ، قلبي يُحدثُني ويقول لي أني على صدى الدخول إلى قصة مشوقه للغاية تكمُن تفصيلها في صدر ذلك الخائف المرتعش أو ربما هي سبباً في ذلك الأرتجاف ، خطى مصطفى للداخل في حين أنَّ مكسيكي تطوع في تقديم سيرته الذاتيه .

- مصطفى يا جماعة عايش معانا هنا في باب البحر هو وعيلته كلها .

طأطأ رأسُه في حزن مبالغ ثم أردف بنبرة صوت بها تعاطف كبير " لحد ما حصل اللي حصل وحياتهم أتقلبت بالكامل " ، كلماتُه الغامضة حركت فضولي أكثر لأقتحام حياة ذلك الشاب منبعج الرأس ، في البداية طلب كوباً من الماء أحضرهُ لهُ مكسيكي ، أمسكُه بيد مرتعشة أدت إلى أهتزاز سطح الماء ، أنا غير بارع في قراءة لغة الجسد ولكن منسوب التوتر لدى ذلك الشخص أصبح مرتفع للغاية ، نتأملُه جميعاً وتفاحة آدم تتراقص وهو يتجرع الماء ، الصمت يعم المكان ، لم يُبددُه سوى صوت أرتطام كوب الماء بزجاج المنضدة قبل أن يعود شبح السكون مرة أخرى ليسكن المكان ، مصطفى يتكوم على نفسه كطفل يعلم جيداً ما قدمت يداه وينتظر عقابه ، ينظر إلى نقطة وهمية في الأرض لم تتزحزح عيناه عنها ، أشرت بيدي لمكسيكي كي يسترسل معه في الحديث لنعلم ماذا يُخبيء .

- أنا قولت لمصطفى على فكرة الكتاب بتاعك ، وعجبته جداً وصمم أنه يكون ليه بصمة فيها ، بس هو ليه شرط وحيد .
- اللي هو ؟؟
- القصة تتكتب بأسماء غير أسمائها الحقيقية .
- موافق .
- تمام كدة يا عم مصطفى .

أومأ برأسه المنبعجة فأردف مكسيكي " طب يلا أحكي بقى موضوعك " ، رفع رأسه ببطء قبل أن يُريح ظهرُه للوراء قليلاً ، بصوت مبحوح ومرتجف كصوت من يُعانون من مشاكل في أحبالهم الصوتية بدأ يتحدث .

- الكلام اللي هيتقال ده كلام خطير جداً وحساس كمان ، في سببين مهمين هما اللي جبوني أحكي الحكاية دي ، أولاً أنا عاوز أفيد الناس وأخليهم يتعظوا من اللي حصلنا أنا وأخواتي ، وأوصلهم رسالة صغيرة أقول فيها بلاش السكة الحرام علشان نهايتها وحشة حتى لو كانت حلوة أوي في البداية أمَّا السبب التاني فهقوله إن شاء الله بعد ما أحكي اللي حصل .
- كلامك مشوق جداً يا أستاذ مصطفى ياريت نبدأ بسرعة .

تنهد تنهيده طويلة ثم بدأ يحكي .

البروندانغا

" مصطفى نبيل الفولي " هو الأسم الثلاثي لذلك الشاب منبعج الرأس الذي وجد نفسه أخر الأفراد المنضمين إلى أكثر أسرة تُعاني من رب بيت منبوذ من الجميع ، أسرة مكونة من ثلاثة أفراد فجاء هو ليُتمم عددهم إلى أربعة ، نشَأ وترعرع وسط أسرة يرعاها أب تسري في دمائه صفة يشمئز منها الناس جميعاً وخصوصاً النساء ألا وهي الشُح والبخل الشديد ، لا يسعى في الحياة إلا لجمع الأموال ، بخيل لدرجة لم ولن يصل إليها أي مخلوق ، لا ترتاب في أنه نبي أمة البخل ومعجزتُه هي قدرة على التعايش هو وأسرتُه طوال الشهر بما لا يتعدى مصروف طالب في الأعدادية ، يستطيع التكيف بسهولة في أي وقت وفي أي مكان نظراً لبخلِه الشديد ، يستخدم أي جهاز كهربي كان يحمل قدراً مشئوماً فجِيءَ به إلى منزلُه ليقضى فترة خدمتُه حتى أخر ثانية في عمره الأفتراضي ، يأبى تغيرُه حتى ولو مرَّ عليه من العقود ما يجعل تكنولوجيتُه تختفى ، تحصل كل الأجهزة الكهربائية في بيته على معاملة لم يحظى بها أولاده ، يذكر مصطفى ذات مرة أنه حدث أنقطاع للتيار الكهربي وعاد في نفس اللحظة ، خطأ فادح في محطة الكهرباء أدى إلى أطلاق صرخة عالية منه قبل أن يفزع ويهرع إلى الثلاجة التي ابتاعها قبل زفافة من معارض السلع المُعمره ، وضع أذُنه عليها ، يستمع إلى نبض موتورها وكأنه استشاري أمراض قلب ، أحتضنها بقوة وكأنها أبنته التي لم يراها منذُ ولادتها ليتأكد أنها مازلت تعمل ، ظل يتردد عليها في جلسات أستشارية لمدة أسبوع كامل حتى يتأكد من سلامتها ، والله لو فلذة كبده تعرض لوباء لما نال هذا الأهتمام التي نالته الثلاجة !!!!

يعشق شهر رمضان المعظم لأنه الشهر الوحيد الذي يستمتع فيه بتلك الفكرة العبقرية " موائد الرحمن " ، لا يجد مذاق أطيب من مذاق ذلك الطعام الذي لا يُكلفه شيئاً على عكس طعام البيت الذي يبكيه كلما كسر أحدنا رغيف ولو كان يملك موهبة شعرية لرثاه رثاء خنساء فقدت كل أسرتها في الحرب .

يعمل موظف في الشهر العقاري لكنه لا يبدي أي أهتمام بملابسه ولا يشغل باله أن يبدو أنيقاً وسط زملاء العمل ، فقط بذلتين للصيف ومثلهم للشتاء حصل عليهم جميعاً في حملة الكساء الشعبي في أواخر الثمانينات ، كان يبدو لجيرانِه كفيروس مزعج يتمنوا التخلص منه

نهائياً ، لا تأتي سيرته على مسامعهم إلا ووصفُه بأفظع الكلمات خاصتاً وأنهم يعرفون أنه يتقاضى الرشوة مقابل تخليص بعض الأمور التي هي حق من حقوق المواطنين في الأساس ، بأختصار شديد حياتنا معه كانت كالبلاء لا يلقي في بيتنا سوى شُحاً وبخلاً .

أخي الأكبر " مُسعد " أول من تضرر من أنيميا الأنفاق التي تعاني منها أسرتنا ، أنهى تعليمه الثانوي بمجموع يُتيح لهُ أي كلية يرغب بالأنضمام إليها ، أنجذابه وحبه للرياضيات دفعه لأختيار كلية الهندسة ليُقابلها والدي بالرفض مُستخدماً حق " الفيتو " فحالها حال كلية الطب والصيدلة وكافة كليات القمة التي تحتاج إلى مصاريف طائلة علماً بأنه يمتلك من المال ما يكفي لتحقيق أحلامنا بالكامل ، حاولت والدتي إيقاف تلك المهزلة التعليمية لكن لم تستطيع ، تنازل مُسعد عن حلمه وألتحق بكلية عادية لينتهي به الأمر كـ " مدرس رياضيات " في مدرسة إبتدائية بمرتب بخس يحتاج معه لوظيفة أخرى إذا أراد أن يعيش حياة كريمة ، تصرف غشيم أدى إلى أنخفاض عزيمتي ، فقد دَبَ اليأس في قلبي فأنهيت تعليمي مبكراً جداً وعملت مساعد " شيف " في إحدى المطاعم معدومة الشهرة .

توالت السنين وتعاقبت على هذه الشاكلة حتى جاء مِعاد خروج أبي على المعاش ، حصل على مكافئة نهاية الخدمة فضمها إلى أقاربها في حسابه البنكي دون أن يخدشها في الوقت الذي وصل فيه أخي الأكبر إلى أوائل الثلاثينات دون أن يلمس يد فتاة ، تتزايد شهوته يوماً بعد يوم ورغبته في الزواج لكن راتبه الضئيل لن يقاوم سوى متطلبات الحياة العادية في الوقت الذي رفع فيه والدنا يدُه عن كافة مصاريف أي شخص يحصل على وظيفة أو حتى لم يحصل .

أتينا أنا وأخي مُسعد إليه يوماً كي نعرض عليه مد يد المساعدة من أجل مواصلة الحياة فلم ننال إلا سُباباً وتوبيخاً بأقذر الكلِمات لتستمر في النهاية رحلة شقاء إمبراطورية (م) " مصطفى ، مُسعد "

بعد تلك الواقعة بثلاثة أيام كنت في طريقي إلى مطبخنا الذي يصرخ من قلة البروتينات وأي شيء أخر لعمل كوباً من الشاي قبل أن يعود والدي من صلاة العصر فينهاني عن شُربه بحُجة أنه مدمر للصحة ومُسبب للوفاة لكن حقيقة الأمر تكمُن في أنه مدمر للسكر والشاي وربما للغاز الذي سأستنفذه من أسطوانة " البوتاجاز " ، أقتربت على أطراف أصابعي وأنا أمد أذني لتسبقني كطفل همَ ليتلصص على مقابلة والده بأحدى الضيوف لأتأكد هل وصل أم أنه لايزال في المسجد ، أستوقفني أخي الأكبر ، حرك فضولي شكله المُرتبك الذي ينُمُ على أن هناك أمراً ما في غاية الخطورة ،بدأ يتحدث إلي بصوت منخفض يقترب من درجة الهمس ، أُذني تتناول كلام خطير جداً ، أنه يحثُني بكل ما أوتي من قوة وبكل وسائل واستراتيجيات الأقناع على .... ، على .... ، على قتل أبي !!!!!!!! ، في البداية لجَم الأمر لساني لكنه سرعان ما وجدني أرفض بشدة وبحدة لم يعتاد هو عليها في حديثة معي مما دفعه في محاولة أخرى لأقناعي .

- بص يا مصطفى أنت عمرك ما هتبقى حاجة ولا هتحقق اللي بتحلم بيه طول ما أبوك ده عايش وسطينا ، معاه الفلوس دي كلها ومش عاوز يساعدنا ، المفروض أننا نعمل إيه بقى ها ، نعمل إيه ؟؟
- أي حاجة غير أننا نقتله يا مُسعد ، نقتل أبونا !!!!
- أيوة نقتله ، مش كفاية دمرنا وضيع مستقبلنا أنا وأنت ، أنا ضيع عليه كلية الهندسة ودلوقتي هيضيع مني فرصة الجواز ، أنت كمان ضيع عليك فرصة التعليم ، هو مش هيساعد حد فينا ، أنا وأنت مستقبلنا متوقف على حاجة واحدة والحاجة دي عنده ولازم نخدها ، الفلوس يا مصطفى ، الفلوس .
- يا عم نبقى ناخدها بعد عمر طويل .
- وأحنا إيه اللي يخلينا نستنا لحد ما أمر ربنا ينفذ ، بعدين أبوك يا حبيبي هيدفنا كلنا واحد ورا التاني ، وهو هيفضل قاعد فيها كدة .

بصوت مرتعش سألتُه .

- طب أنت عاوز إيه طيب ؟؟
- إيه البرود اللي أنت فيه ده ، بقولك مستقبلنا بيضيع يا مصطفى والحل في الفلوس اللي تحت أيد أبوك ، أحنا لازم ناخد الفلوس دي .

كلامه نزل على أُذُني كالصاعقة ، لم أتوقع سماع أمر كهذا ، كيف تجرأ مُسعد وفكر في ذلك الأمر حتى ولو على سبيل المُزاح ولكن أنا أعرف أخي جيداً ، هو لا يمزح ، لا يمكن أن يكون هذا أخي الذي يحمل أسم عائلتي أنه شخص أخر ينتمي إلى عائلة آل كابوني ، عائلة المافيا الأشهر في أوربا ، الأمر كبير ومفاجيء جعل عقلي يتوقف عن التفكير من هول الموقف .

- إيه أنت هتصورني يا مصطفى ، رأيك إيه في اللي أنا قولته .
- طب لو أفترضنا أني وافقت ، الموضوع ده هيتعمل أزاي ؟؟؟؟

ابتسم ابتسامة خبث شديدة قبل أن يُجيب بنبرة ماكرة .

- أمك المفروض هترجع الصبح من عند خالتك صح .
- صح .
- بليل بعد ما يرجع هو من صلاة العشاء هنعملُه كباية نسكافية وجنبها أكله خفيفة كدة ، مخبوزات من الغالية اللي بيحبها ، لما يعرف أنها على حسابنا هيفرح أوي ، سبب العزومة هيبقى أننا عاوزينه يبقى راضي عنا وعموماً هو مش هيسأل على السبب مدام عزومة ، أحنا بقى هنكون حطين كام حباية منوم في النسكافية اللي هيشربه ، بعدها بشوية هينام ، أمك هتيجي الصبح عادي ، هتدخل تصحيه لما تلاقيه غاب في النوم ، هتلاقيه ميت ، هتصوت والناس هتتلم والموضوع هيمشي طبيعي جداً ،

هنجري على مكتب الصحة هنطلع تصريح الدفن ، هناك لا حد بيسأل ولا بيقولوا فيه إيه مدام المتوفي راجل كبير ومعدي الستين ، هنروح ندفنه ، تلات أيام ونعمل أعلام وراثة ونروح البنك ونقسم التركة .

قال جملتُه الأخيرة وهو يُصفق بيداه ، خطة شيطانية لا تخرج إلا من مجرم مُحنك يعلم جيداً ماذا يفعل !! ، صوت مفتاح يولج في باب الشقة ، أنه أبي عاد من صلاة العصر ، دخل الشقة متجاهلاً كل من فيها قاصداً غرفة نومه ، حانت منه نظرة تجاهنا قبل أن يبدأ كعادته وصلة الأستهزاء الشديدة بنا .

- خليكم كدة قاعدين زي البنات اللي مستنين عَدلهُم ، أنا مش هصرف على حد فيكم خالص علشان تبقوا عارفين ، محدش هياخد مني جنية إن شلا تموته من الجوع يا فشلة .

ألهب صدورهم بتلك التعليقات الساخرة ثم أنصرف وكأنه أراد أن يُتيح فرصة ذهبية لمسعد كي يستغل كلامه الساخر فيُحرك به حماسي في التخلص منه نهائياً .

عم المساء حينما توارت الشمس وتوارى معها أخر ضوء نهار ، أبي كان في المسجد يؤدي صلاة العشاء ، باب الشقة يُفتح ببطء ، ترتفع مع صريرُه أصوات أنفاس تلهث من أثر الركض وصعود السلالم بسرعة و رشاقة لم يعتاد صاحب الأنفاس عليها ، أنه مُسعد عاد لتوه من الخارج يحمل في يديه كيساً بلاستيكياً شفاف مكتظاً بالشطائر والمخبوزات ، دلف إلى المطبخ في عُجالة فقتربت من الباب بخطوات بطيئة وأعصابي تحترق من الأنتظار ، بأنفعال زائد سألته عن سبب تأخيره فأجابني باقتضاب أنه رفض أن يبتاع حبوب المنوم من الصيدلية القريبة منهم حتى لا يقعوا في دائرة الشك ، فضل أن يبتاعها من صيدلية بعيدة لا يعلم صاحبها عنهم شيئاً ، أخرج العلبة البلاستيكية وأفرغ منها ثلاثة حبات في كوب أبيهم الزجاجي ، أتَانا صوت المفتاح وهو يلوج في باب الشقة ، وصل والدُنا ليُلاقي حتفِه ، ماذا عليَّ أن أفعل ؟؟ أطرافي ترتعش بلا هواده ، لا أعرف كيف وافقت على هذا الأمر ، لا أعرف كيف تسلل لي مُسعد ؟؟ كيف وصل إلى تلافيف عقلي ليُقنعني بفعل ذلك الأمر ، ماذا أفعل هل أحاول أقناع مُسعد بأن ما يريد فعله شيء في غاية الخطورة أم أصمت لأستمتع بميراثي ، حاولت أن أقنع مُسعد كي يقلع عن ذلك الأمر فسدد لي نظرة شعرت معها أنني سأصبح التالي إن لم أكف عن الثرثرة ، حمل الصينية التي يفترش سطحها النسكافية والمخبوزات وهرول إلى صومعة أبي وأنا لازلت أرتجف ، أتحرك كالمسحور للا أملك أي قرار أو إرادة في رفض ما يحدث .

- إيه الحنية دي كلها ؟؟ ، من أمتى يا حبيبي أنت وهو ؟؟

قالها والدي عندما رأنا ندخل عليه حاملين الصينية .

- عاوزين نفتح صفحة جديدة معاك يا حج .

قالها مُسعد وهو يرتدي جناحين ملائكة لفترة مؤقتة ، نظر إلى النسكافية والمخبوزات ثم أردف " ودي بقى الحاجات اللي بتفتحوا الصفحة بيها "

- حاجات بسيطة كدة يا حج ، كلُه من خيرك والله .

مدَّ يدُه وأخذ واحدة وبدأ يلتهمها في نهم .

- طعمها لذيذ أوي علشان على حسابكم يا فشلة .

أبتسم مُسعد مجاملاً ثم مدَّ يدُه بكوب الكافين يعطيه لوالده فأخذُه منهُ ببشاشة مستفزة إلى حد ما ، أرتشف منه قليلاً ثم عبر بحفاوة عن مذاقِه الطيب ، وقعت عيناه علينا فشعر بحالة التوتر الشديدة التي تنتابني فقد غدا وجهي مُصْفَرّ اللون ، بادي القلق ، لا أستطيع فرض سيطرتي على أطرافي التي تهتز ، رشف رشفة كبيرة هذه المرة ثم سألني عما أصابني فأجبته " لا شيء ، لا شيء على الأطلاق " أجبته وعيني معلقة على نقطة وهمية فأنا أتحاشى النظر إلى وجهه في لحظاته الأخيرة ، لم يقتنع بإجابتي الدبلوماسية فعاود السؤال مرة أخرى فما كان من مُسعد إلا أن ابتسم قبل أن يختلق سيناريو لم أعرف من أين أتى به .

- أصله خسر الرهان يا حج .
- رهان !!! رهان إيه ؟؟
- أصل البيه كان بيقولي أنك أنت غضبان علينا ومش هتقبل مننا أي حاجة فأنا قولتله لا الحج حنين ، فلما لقيته مش مقتنع قولت له تعالى نتراهن ، بس فهو كدة خسر الرهان يا حج .
- ياولاد الكلب ، بتتراهنوا عليه ، هو الصراحة الصراحة يعني أنا مش طايق أبص في وشكم بس اللي يجي منكم أحسن منكم يعني .

ضحك مُسعد بأفتعال مبالغ فيه في الوقت الذي أرتشف فيه والدي من السائل الساخن لنكتشف أنه تجرع أكثر من نصف الكوب تقريباً ، بدأ جهازُه العصبي في التراخي تدريجياً ، يغمض عيناه ويفتحها مرات عديدة دليل على أن الرؤية بدأت تتعذر ، أمسك برأسِه فقد بدأ الدوار يضربها بقوة .

- في إيه يا حج مالك ؟؟
- مش عارف دماغي داخت مرة واحدة .
- تلاقيه بس إرهاق وقلة نوم ، أشرب النسكافية ده هيخليك تصحصح .

رفع يدُه وحاول أن يرتشف من الكوب ولكن جهازه العصبي أنهار تماماً ، سقط على الأرض وسقط جسده هو على السرير في الوقت الذي ظهر فيه شبح أبتسامة مرعبه على وجه مُسعد ، يتحدث إلينا بصوت غير مفهوم يستفسر عن ذلك الشيء الذي تجرعه فأجابه مُسعد بإستفزاز .

- أنت شربت اللي هيخلينا ناخد حقنا وفلوسنا اللي أنت حرمتنا منها طول عمرنا .

فتح عيناه بصعوبة ونظر له نظرة أخيرة لم أنساها حتى يومنا هذا ، قبل أن يغلب عليها الأنغلاق الأبدي ، ظل يُتمتم بكلام غريب ما فهمتُه منه أنه يلعننا ويلعن تربيته التي سمحت لنا بفعل أمرٍ كهذا ، أتسع ثغر مُسعد من شدة الفرح ، أخيراً تحقق الحلم هكذا كان يصرخ مُسعد فرحاً ولكن سرعان ما تلاشت تلك الفرحة حينما استمعنا إلى صوت والدتي ، لم تعد في الوقت المخطط له ، أصتدمت أُذُننا بصوتها وهي تتشاجر مع الأسرة التي تقطن فوقنا مباشرةً ، تصفهم بأنهم مجموعة من الغجر لا يصلحوا للعيش في بنايات سكنية بسبب رفضهم الدائم لصيانة ماسورة المياة التي حولت شكل سقف الشقة إلى مرتبة سرير لطفل لم يتحكم بعد في جهازه البولي ، أصابني مس من الجنون حينما أستمعت إلى صوتها ، نهرني مُسعد بقوة وبعنف أخرسني .

- مصطفى أسترجل شوية بقى ، أمك لو دخلت علينا كدة أو لو دخلت ولقت الدنيا كدة هتشك ، أنت تمسك أعصابك وتخرجلها بره وتعطلها على أد ما تقدر ، أوعى تخليها تدخل لحد ما اظبط الدنيا هنا .

أماءتُ برأسي وجسدي لا يزال يرتعش كأنه عاري تماماً في فجر يوم قاسي شديد البرودة مما دفع مُسعد ليصرخ في وجهي بقوة " أسترجل بقى " ، لم يغير صوته العالي شيء مما أنا فيه .

- الله يخربيت أهلك ، هتودينا في داهية ، خلاص هخرج أنا أعطلها وأنت ظبط الدنيا ، نيم أبوك في السرير وغطيه كويس مش عاوز أمك تحس بحاجة .

تركني وخرج لوالدتي ، أنضم إليها ، ظل يصرخ وينعت هؤلاء الجيران معدومي المسئولية ، يوزع التهديدات والتوعدات لهم ، لو لم يُصلحوا تلك الماسورة سيُحرر ضددهم محضر في قسم الشرطة ولن يتنازل عن حقِه ، من أين جاءت لهُ تلك الأفكار الأجرامية والأعصاب الفولاذية التي لايمتلكها سوى مجرم لا تقل خبرته عن عشرة سنوات قتل وبلطجة .

تكومت على سريري ، لم أستطيع النوم طوال هذه الليلة الدامية ، تتساقطت دموعي رغماً عني ، لم يهدأ ضميري طوال الليل ولم يتركني وشأني ، أُجاهد ليُغالبني النوم للهروب ولو لساعة من ذلك الواقع المرير لكن لم أستطيع ، صاحبني الأرق الشديد حتى رُفِعَ آذان

الفجر ، للمرة الأولى لن يذهب والدي للصلاة ، سيظل راقد كما هو حتى الأنتهاء من أجراءات الدفن ، نهضت والدتي ثم سمعتها وهي تُحاول أن توقظه فلم يستجيب ، نهرت نومه الثقيل ثم ذهبت وتوضئت ثم عادت لتوقظه مرة أخرى ، نحن الآن على صدى الأستماع إلى صرخات الوداع الأولى ، ها هي بدأت بعزفها ، أطلقت صرختها فماجت الدنيا ، حالة من الهرج والفوضى ضربت المنزل بل الشارع بأكمله وكأن بروجي نُفخ فيه لتدوب الحياة في وحدة عسكرية كاملة ، أناس هرعوا إلى شقتنا لتقديم المساعدة وتفقد الأمر وأخرون يتسائلون في شغف على أمل معرفة سبب الصراخ ليذيعوه في الشارع بأكمله بعد إضافة التحابيش ، لا أدري حتى الآن كيف أستطاع مُسعد تقمص ذلك الدور الحزين الذي شعرت معه ولو للحظات أنه صُدِمَ بخبر وفاة والدُه !!! على الرغم أنني على يقين بالحقيقة ، ظل يبكي ويصرخ ، يسقط في الأرض مُدعياً فقدان التوازن من صدمة الخبر !! ، يُردد بأنهيار تام كيف مات ؟؟ عقلي يأبى تصديق ذلك ، كنا نجلس بالأمس سوياً في شرفة المنزل ، نحتسي كوبا من الحلبة بعد صلاة العشاء ، نتسامر ونتحدث طويلاً عن أمور هامة وخاصة بمستقبل عائلتنا ، الغريب أنَّ ذلك الكلام المعسول أنتزع دموع بعض الحاضرين .

خرج مُسعد مع ظهور خيط النهار الأول مُتجهاً إلى مكتب الصحة لأستخراج تصريح الدفن ، وجد في مكتب الصحة طبيب بدين ، أصلع ، لا يُعير لعمله أي أهتمام ، نقش تصريح الدفن بخط الأطباء الغير مفهوم ، كَتَبَ في خانة السبب الذي أدى للوفاة هبوط حاد في الدورة الدموية أدى إلى حدوث الوفاة ، أخذ مُسعد التصريح وعاد سريعاً ليلحق بصلاة الظهر .

****

أجلس بجوار جثمان والدي الذي نُقِلَ إلى المسجد الأقرب تمهيداً لصلاة الجنازة ، أبكي بحرقة ، تستقبل أُذُني كلمات مثل " شد حيلك ، البركة فيك " ممن جاءوا لأداء صلاة الجنازة ، تَخدّل كتفي من - طبطبات المواساة - قبل أن ينتهكوا صدغِي بالقبلات ، لا أدري لماذا يحتضنك ويُقبلك ويخبطك بقوة على كتفك أو على ظهرك كل من أراد أن يقول لك البقاء لله !!! .

أنا فاقد الوعي تقريباً ، ما حدث أنساني كل شيء حتى نفسي ، جَثَيتُ على ركبتي قبل أن أنكب على الجثمان لأقبلُه قبلة الوداع ، أودعُه وداعاً حنوناً لا يتناسب مع شخصٍ قاتل !! ، وضعتُ رأسي على صدره ودموعي تتساقط رغماً عني لكن حدث شيء غريب كان لا يمكن أن أتخيلُه ، أستمعت إلى صوت وهن يأتي من بعيد ،أنها نبضات ضعيفه تُشبه تماماً نبضات قلب رضيع ، نبضات !!! ، إذاً هو لم يَمُت لكن كيف ؟؟ ، ربما الجرعة لم تكن كافية ، المُخدر لم يقضي على حياته ، فقط هو يحتاج إلى رعاية صحية سريعة لتتحفز تلك النبضات على الظهور ، نهضت واقفاً ، وثبت إلى مُسعد الذي لا يزال يتقمص دور اليتيم أمام جيرانِه وأقاربه ، تتساقط على وجنتيه دموع التماسيح الزائفة ، استأذنتُ الجميع لأنفرد بأخي في احدى أركان المسجد ، أخبرتُه بما حدث فتوقفت الدموع فجأة وكأنه يمتلك قدرة عجيبة على التحكم بها ، تلاشت ملامح الحزن العميق وتبدلت بأخرى تحمل غضبٍ قاتم ،

بنبره حادة أمرني أن أدفنه حياً !!!! مع من أتحدث ؟؟ هل مع أخي أم مع عضو هام في أعتى عصابات المافيا .

- أنت بتقول إيه ؟؟؟

ضغط على كلماته وأجابني بغِلظة هذه المرة .

- بقولك أدفنه يا مصطفى ، أظن كلامي واضح .

نزلت عليَّ الكلمات كالصاعقة ، لم أتوقع تلك الإجابة التي جعلت ملامحي تَتشكل بدهشة لم تزور وجهي منذُ ولادتي ، حركت رأسي بالرفض فتجهم مُسعد قبل أن يُسدد لي لكمة قوية غاشمة كادت أن تخلع كتفِي .

- أسمع يلا علشان أنا بدأت أجيب أخري منك ، أحنا هنصلي عليه وهنطلع جري على المقابر ، ندفن ولا أكن في حاجة .
- أنت عاوز تخلينا ندفن أبوك حي ، هندفن أبونا حي يا مُسعد .
- ولو أي حد مكانه كنت هدفنه ، يا روح ما بعدك روح يا عم مصطفى ، ولا أنت فاكر أن أبوك لو قام هيخدنا بالحضن ، أبوك لو فاق أنا وأنت هنتعلق في حبل المشنقة .
- بس كدا ....

قاطعه ،،

- أنا مش عاوز كلام كتير ، مدام بدأنا حاجة يبقى ننهيها للأخر يا أما عليه الحرام من ديني ما هيحصل كويس .

خطى مُسعد خطوة واحدة للأمام ثم عاد إلي يتحدث معي بتحدي غريب .

- أنت لو روحك مش غالية عليك فأنا بقى روحي غالية عليه ، اللي أنا بقوله لو متعملش هنيمك جنب أبوك في قبر واحد واللي قتل مرة يقتل ألف يا مصطفى .

ولى لي دوبُره وأنصرف وسط نظرات الذهول التي ظهرت على وجهي بعدما سقط في دوامات الحيرة ، هل أستجيب لتلك الأوامر وأدفن أبي حياً أم أضرب بكلام أخي عرض الحائط مُتجاهلاً تهديداته ، أنا في حيرة من أمري لا أدري ماذا أفعل حتى أتاني الشيطان يرتدي جناحين كأجنحة اليمام وعلى رأسه من أعلى تلك الهالة البيضاء التي تُعطيه هيئة الملائكة ، يهمس بصوته الخبيث في أذني مؤكداً لي صواب رأي أخي ، لا حل أمامي سوى ذلك الحل الذي أقترحه مُسعد وما غير ذلك سيُشكل سبيلاً حقيقياً إلى حبل المشنقة ، أستمعتُ

إلى رأيه فصم أُذني عن سماع الجزء الذي أستفاق من ضميري فذهبت مع الجميع لتشيع جثمان أعلم جيداً أنه على قيد الحياة !!!!

في اليوم الثالث من الوفاة والأسرة لازالت تتلقى العزاء بدأ مُسعد مبكراً البحث عن مستقبله المُشرق ، أنهى سريعاً إجراءات البنك بمجرد ظهور إعلام الوراثة ، قُسِمَ المبلغ على الجميع حسب ما جاء في الشريعة الأسلامية ، اسقطَ بعدها مُسعد عن كاهله جميع مسئوليات الأسرة ،ولاً لهم ظهره ولم يبالي لأحد منهم ، تناسى أنه الأخ الأكبر والمسئول عن تلك الأسرة ، تركهم في ظروف تحتاج إلى مجهود كل فرد فيها .

سافر إلى عروس البحر المتوسط رغبتاً منه في بناء حياة جديدة في مجتمع لا يعرف عن ماضيه شيئاً ، نزل في حي الأنفوشي وقام بشراء شقة ومحل تجاري ليبدأ حياته الجديدة كتاجر ملابس نسائية ، المبلغ الذي ورثُه عن أبيه وفر لهُ شراء مَتْجَر ممتليء بالبضائع ، في الوجهة تقف المانيكانات مرتديات ملابس ساخنة ، مانيكان لفتاة شقراء ترتدي " بيبي دول " أسود وأخرى بمنامة روز تسُرّ الناظرين ، ملابس بعينها تعمد وضعها في وجهة المَتْجر من أجل أنتزاع ما في جيب كل من لايزال يسعى لأثبات رجولته .

مَرّ ثلاثة أعوام شَهد فيها مُسعد نجاحاً أسطورياً لتجارتِه التي كبُرت وتوسعت بشكل سريع ، صار المَتْجَر الوحيد الذي لا يخلو من الزبائن ، أصبح كخلية النحل التي لا يتوقف فيها العمل الدئوب ، حصد مُسعد في تلك الفترة كراهية كل من حوله من تُجار بسبب أسلوبه الملتوي الخبيث وحبُه الشديد لذاته وتقديسَهُ لمصلحتِه الشخصية .

بعد مرور ستة أشهر أخرى أقام حفلاً صاخباً أمام مَتْجَرُه ليعبر فيه عن سعادته الشديدة ببدأ تحول تجارته من " التجزئة إلى الجُملة " ، تلقى مني أتصالاً هاتفياً قبل بدأ الحفل مباشرةً فقد بذلت مجهوداً خرافياً حتى تمكنت من الوصول إلى رقم هاتفِه الجديد بعدما أُذيع سيطه في شارع باب البحر حينما شاهدُه أحد الجيران القُدامى وهو يَترجل في حي الأنفوشي ، يجلس على كرسيه الوثير أمام مَتْجَرُه الذي لا يخلو من الزبائن ويُدخن الأرجيلة ، دون أن يلاحظ مُسعد نَقشَ الرجل رقم الهاتف المطبوع على لوحة الأعلان المُعلقة على وجهة المَتْجَرُه ، أخبرتُه أن أهل الشارع وجدوا والدتنا في الصباح الباكر ملقاه على الأرض لأنها تُعاني من تدهور شديد في حالتها الصحية والنفسية بعد موت زوجها الذي نحن سبباً فيه من الأساس ، لم تتحرك مشاعره ، أرتسم على وجهه تعبيرات من يستمع إلى قصة هزلية مملة ، في نهاية الحديث أخبره أنه لم يعد يلتفت لمثل هذه الأمور ، فلها الله في ذلك مثلما كان لها وهي تعيش مع ذلك البخيل الممل زوجها لعنة الله ، ثم سألني بأهتمام عن أموالها وحقها في الميراث قبل أن يُخبرني بلهجة حازمة أنه في حالة إن لم يصلُه حقُه في مالها في حالة وفاتها فسيُسند الأمر للقضاء ، أنتهت المحادثة مثلما بدأت دون تغير أي شيء ودون أن تتحرك حتى مشاعرُه .

بدأ الحفل الكبير الذي يضم عدد كبير من التُجار المعروفين الذين جائوه منافقين من أجل مصالحهم الشخصية ، شاب رفيع في سمك القلم الرصاص تقريباً ، أسمر البشرة ، يقف خلف جهاز DJ ، يحد من تلك المسافة الواقعة بين كتفه الأيسر وأذنه ليحمي السماعة من السقوط ، يداه مشغولاتان ، واحدة يُحرك بها أسطوانة عكس أتجاه مسارها الطبيعي لتصدر أصوات متقطعة والأخرى يرفع بها زر الصوت الشهير الذي يظهر عادتاً مهندس الصوت وهو يرفعه إلى أعلى كمشهد أول لأي كليب يتم تصويره داخل أستوديو الصوت ، شباب لم يتعدوا سن المراهقة يتراقصون أمام المَتْجَر وكأنهم مصابين بنوبة صرع ، توقفت أمام المَتْجَر مباشرة سيارة فارهة تنُمُ عن مستوى مادي مرتفع ، خطفت أنظار التُجار الجالسين حول مُسعد في حلقة شبه دائرية ، خرج أحدهم وتحدث للجميع بصوتٍ عالٍ " دا الحاج معتصم " الأسم أخترق أذن مُسعد بسرعة البرق ، أضاف أخر أنه رجل محترم ذو شأن عظيم ، مالَ مُسعد على أُذن من يُجاوره وسأله عن الحاج معتصم هذا فأخبره بإقتضاب أنه تاجر مشهور من القاهرة جاء إلى الأسكندرية ليبدأ تجارة جديدة بصحبة شركه الشاب الفرنسي الثري ، أخبرُه أيضاً أنه جلس معهم منذُ يومين لعرض صفقة مربحه ، دعوه في النهاية المقابلة إلى ذلك الحفل الصغير ، لمعت عيناه بلمعة غريبة تدل على اصتدام فكرة ما برأسه ، بالتأكيد يريد أن يُطيح بكل هؤلاء المنافقين ليزفر هو بالتجارة مع معتصم وشَرِكه الفرنسي ، نزل من السيارة رجل في عِقدة الخامس ، أسمر البشرة ، شعره الكثيف خليط بين الأبيض والأسود ، على وجهه لحية سوداء تعطي لهُ كاريزما فائقة ، يرتدي بذلة أنيقة تعطيه هيبة السفراء ، بجواره امرأه تصغر عنه قليلاً ، تبدو زوجته ، تتمتع بثقة نفس عالية وصلت إلى حد الغرور ، تشعر دائماً أنها الأفضل اجتماعياً من أي شخص أخر قُدِرَ لهُ أن يتواجد في مكان هي فيه ، تتحاشى من حولها وكأنهم مصابون بمرض جلدي شنيع تشمئز منه العيون ، ترتدي أكسسوارات تكفي لمِلأ مَتْجَر صغير يمتلكه شاب فشل في الحصول على وظيفة بشهادته ، تضع على وجهها كميات كبيرة من المساحيق لتخفي تلك التجاعيد التي قد تؤثر على أناقتها ، تتأخر خلفهم بخطوات معدودة فتاة تملك وفرة غير عادية من هرمونات الأستروجين والبروجسترون المسئولة عن أبراز معالم الأنوثة ، تمتلك مؤخرة مشدودة في حجم كرة القدم تُغازل بها دون قصد كل من يقع في طريقها ، ترتدي فستان مشدود على خصرها وكأنه أراد أن يُشي بمفاتنها البارزة ، تسمرت عين مُسعد عليها ، أرتفعت لديه منسوب هرمون التسترون ، تعرقت جبهته وهو يتابع خُطاها بتركيز طالب في لجنة أمتحان فزياء ، بجوارها شاب في منتصف الثلاثينات ، أشقر ، يبدو أنه أعجمي ، " ذو عينين ملونتين " ، يرتدي ملابس أنيقة يبدو فيها وسيم جداً لدرجة أنك من الممكن أن ترتاب في أنه ممثل سينمائي مشهور ، أنتفض مُسعد من مكانه ، وثب إليهم في ترحاب شديد ، أستقبلهم بحفاوة وكأنهم سفراء للأمم المتحدة في زيارة رسمية ، أغرقهم بالتحيات قبل أن يبدأ معتصم بتعريف نفسه وأسرته - زوجته وأبنته تسنيم - وأخيراً شَرِيكه الفرنسي ، أبتسمت لهُ تسنيم فكشفت عن أسنانها ناصعة البياض ، حدثه الفرنسي محيياً إياه بلغته الأعجمية فأجاب مُسعد إجابة تكشف عن جهله الشديد " والله زي الفل " ، أستأذنت تسنيم بحُجة أنها تريد أن تجول في ذلك المَتْجَر لعلها تجد شيئاً يناسبها ، أنضمت لها والدتها بعدما سمح لهما معتصم بذلك .

عاد مُسعد إلى التُجار مرة أخرى ولكن بصحبة الفرنسي والحاج معتصم ، حَاوَل مُسعد التقرب إلى معتصم بكافة الطرق خاصتاً بعدما أستعرض لهم السيرة الذاتية الخاص بشركته و شَرِيكه الفرنسي الذي تحدث بكل ثقة وواقعية عن رغبته الجادة في فتح تجارة جديدة في مدينة الأسكندرية المُدللة والتي تشتهر بالذوق والجمال ، أستعرض بعد ذلك الفرنسي بعضاً من أفكاره التي ينوي تنفيذها لتوسيع تجارته ، ترجم لهم معتصم ما قِيلَ على لسانِه ليزدادوا أعجاباً به وبفكره التسويقي ، عين مُسعد لم تتزحزح عن مفاتن تسنيم التي تتلاعب كبلونة مملؤة بالمياه خلف فستانها الضيق ، أنتهى بينهم اللقاء الأول بعدما حصل مُسعد على أرقام هاتف معتصم وبعدما أستطاع الحصول أيضاً على ميعاد يجمع بينهما .

مرَّ أسبوع ثم تلقى معتصم دعوة على العشاء من مُسعد في مطعم يُعد من أكبر المطاعم في العاصمة ، لبى معتصم الدعوة وحضر وبصحبته عائلتُه و شَرِيكه الفرنسي ، ألتف الجميع حول مائدة تتوسط المطعم كلفت مُسعد أموالاً إضافية لحجزها .

- الصراحة يا مُسعد أنا بحسدك .
- على إيه يا معتصم باشا .
- على التُجار اللي حوليك ، ناس ذوق وبتفهم في الأصول وأكيد مريحينك في الشغل .

ظهرت له زاوية يتمكن من خلالها الأنقضاض على سمعة التُجار للتخلص منهم نهائياً .

- مين دول يا باشا ، طب والله دي عالم زبالة ، ومنافقين ، أوعى يكون دخل عليك الوش اللي شفته منهم ده ، هما في الأول كدة بس أنما أول ما يتمكنوا هيبقوا حاجة تانية خالص ، زي الأفاعي بالظبط ملمسهم ناعم بس لدغتهم والقبر .
- يا ساتر يارب ، أزاي الكلام ده .
- والله زي ما بقولك كدة يا باشا ، طب أنت عارف الحج صالح ، الجدع أبو جلبية ده اللي كان عمال يرغي طول القعدة .
- آه طبعاً ، دا باين عليه راجل خدوم .
- مين ده اللي خدوم ، دا أكبر حرامي في أسكندرية كلها ، خلّص على واحد من قيمة كام شهر كان جايب بضاعة من إيطاليا ، نفس البضاعة اللي هو بيتاجر فيها بس أنضف شوية ، تصدق بالله ، ولعلُه في المخزن بتاعه وحرق كل بضاعتُه .

وضعت تسنيم يدها على فمها وكأن جهازها العصبي لم يتحمل تلك القصة ذات النهاية الدامية بالنسبة لها .

- إيه ده معقول ؟؟؟
- يا باشا مفيش حد كويس ، كله بيمثل على كله .

شَعَرَ الفرنسي أن هناك شيء غير سار يظهر على وجه الجميع ، تسّأل بلغته الأعجمية عن السبب ثم أبد أستيائه الشديد مما وقع على أُذنيه من كلمات بعدما ترجم لهُ معتصم ما حدث .

- خلاص أنا هلغي فكرة التجارة في اسكندرية خالص .
- ليه يا معتصم باشا ، إيه الكلام اللي يزعل ده وهو أنت قاعد مع سوسن لمؤخذة ، طب عليه النعمة ما حد يقدر يجي جنبك دا أنا أولع فيه ، هو أنا قليل ولا إيه ؟؟
- الله ، طب والله شكلك طيب وجدع أوي يا مُسعد .

قالتها تسنيم بصوت مذيب للأعصاب وبوجه مبتهج يمتليء بحمرة الصحة ، أزداد إعجابها الشديد به فقلما تجد فتيات تلك الطبقات الراقية رجلاً حقيقياً يمثل لهم خط دفاع أول ، ظلت تُبادلُه نظرات الأعجاب والأبتسامات الخبيثة التي تنُمُ عن فرط أعجابها به ، تلك المغازلات المستترة أدت إلى إستياء الفرنسي الذي تبدّل وجهه حينما أنتبه لتلك الأبتسامات والمغازلات المتبادلة ، بطريقة غير مباشرة أستطاع مُسعد أن يحصل على رقم هاتفها الخلوي بعدما أتفق مع والدها على أستيراد أول شحنة ملابس فرنسية الصنع للأسواق المصرية وسط نظرات الغضب الذي تجتاح وجه الفرنسي .

عشرة أيام متتالية مرت منذُ ذلك اللقاء لم يخلو فيها يوماً واحداً من مغازلات مُسعد لتسنيم عن طريق الهاتف ، يحاول ألا يترك لعقلها خياراً سوى التفكير فيه ، يغزو خيالها بذلك الحصان الأبيض الذي يمتطيه ، صار جزءً من حياتها اليومية ، تستيقظ على مكالمته وتنهي يومها بصوته الرقيق حين يُداعب أذنيها " عمتِ مساءً " ، أصبحت لا تتخيل حياتها بدونه فقد شغفها حُباً ، تلقى مُسعد أتصالاً هاتفياً من معتصم يطلب منه المجيء إلى مقر شركتُه بالمهندسين للأنتهاء من الأوراق الخاصة بثقفتهم الأولى ، وضع معتصم شرطاً وحيداً أن تكون هذه المقابلة يوم الأربعاء ، مُسعد لا يعلم سبب ذلك الأصرار لكن لا يهم ربما هو شيء متعلق بالحظ وعدمِه ، سافر إلى القاهرة وعقلُه لا يفكر إلا في الهدية التي سيقدمها إلى تسنيم مستغلاً مناسبة توقيع الشراكة كحُجة لتقديمها ، وقف أمام مَتْجَر لبيع المجوهرات ، يجول بعيناه متحرياً الدقة في المقتنيات الذهبية المعروضة بفاترينة المَتْجَر ، وقع الأختيار أخيراً بعد نصف ساعة من الفحص على ذلك الخاتم الذي لا تتحمل قلوب النساء مظهرُه اللامع ، ابتاعه بعدة ألاف فقط لأنه يُناسب أصابع تسنيم القياسية من وجهة نظره ، حمل الهدية واتجه إلى مقر شركة معتصم .

لافتة كبيرة تتوسط بناية عملاقة تستطيع رؤيتها بوضوح من أي زاوية عند دخولك ذلك الشارع بحي المهندسين ، كُتِبَ عليها بخطٍ واضح " شركة تسنيم للأستيراد والتصدير " أرتسمت ابتسامة عريضة على وجه مُسعد حينما وقعت عيناه على ذلك الأسم الذي يتلاعب بمشاعره تلاعب مهاجم مُحترف بدفاع فريق ينتمي للدرجة الثانية ، توقف بسيارته أمام البناية ثم عبر بوابتها ليصتدم بحارس عقار شاب ، صعيدي ، يرتدي ملابس رياضية من تلك الملابس التي تفترش أرصفه العتبة وتبتاعها بمبالغ قليلة قابلة للتفاوض ، سأله في

عُجالة عن شركة تسنيم ، فأجابه والدهشة تتخذ من وجهه موطناً لها أنها في الدور الثالث ، لم يُعير لدهشته أي أهتمام ، فقط اتجه إلى حيث أشار ذلك الصعيدي الشاب ، صعد درجات السلم بسرعة لم يعتاد عليها ، وصل إلى مقر الشركة ، شقة كبيرة تقع في الدور الثالث ، أمام بابها الخشبي توجد لافته شفافه من مادة بلاستيكية حُفِر عليها أسم الشركة الذي يحمل أسم محبوبته أيضاً ، لولا أنه يخشى أن يراه أحد لقَّبل ذلك الأسم ، قرع الجرس فأتاه صوت العصفور المُصاب بهياج عصبي شنيع ، الصوت المعتاد لأجراس الشقق ، فتحت تسنيم ، رحبت به بابتسامة عذبة لخصت بها كل شيء بداخلها ، رَحَّبَت به بصوت رخيم قبل أن تسمح له بالدخول ، لم يستطيع رفع عيناه من على مفاتنها التي باتت لا تستطيع الحد من أهتزازاتِها ، الموقف خرج تماماً عن السيطرة ، وصل إلى المكتب ليجد معتصم وزوجته وذلك الفرنسي في أنتظاره ، يجلس الجميع حول منضدة خشبية صغيرة مُخصصة للأجتماعات ، أمامهم مجموعة من العقود والأوراق الخاصة بأولى صفقاتهم ، ألقى التحية ثم أخرج الخاتم الذهبي ليعطيه إلى تسنيم وسط ابتسامات خجل لا حد لها ملئت وجهها الملائكي ، أحتقن وجهه الفرنسي وهو يُقدم لها تلك الهدية الثمينة ، هل وقع في حبها هو الأخر !!! سؤال لم تظهر إجابته بعد ، مُسعد لاحظ ذلك لكن لم يُعير لضيقه أي أهتمام ، بل أصر على أن يُثبت له بأن الشاب المصري يستطيع أن يسحق أي شخص يحمل جنسية أخرى ، بدأ الفرنسي يستعرض تلك الخطة المُتفق عليها مُسبقاً لتجارتهم وشَراكتهم معاً ، يشرح بلغته الأعجمية كيف سيتم إستراد الملابس وكيف سيتم توزيعها على التُجار ، وكيف سيستغلون ميناء الأسكندرية في كل ذلك ، معتصم كان يُترجم للجميع ما يُقال على لسان ذلك الفرنسي الذي يمتلك كاريزما خاصة للأقناع ، تجارة مُربحه جداً وستجلب لنا الكثير والكثير من المكاسب ، هكذا كان رأي مُسعد النهائي .

- أهنيك يا مُسعد على أفقك الواسع .
- ربنا يخليك يا معتصم باشا ، بس كدة في مشكلة .
- مشكلة إيه ؟؟
- أنت عارف أنا مكملتش شهر على توسيع التجارة بتعتي في اسكندرية فالمبلغ اللي معايا يعني ....

قاطعه معتصم " أنا أكلمت معاك في فلوس "

- يعني يا باشا هو أنا هشركك ببلاش !!
- مش ببلاش يا سيدي ولا حاجة ، أنا هساعدك زي ما ساعدة صحبك الفرنسي اللي قاعد قالبلنا وشه من أول ما أكلمنا .

نظرة خاطفة للفرنسي قبل أن يُجيب " أيوة بس أنت إيه اللي هيجبرك على كدة "

- اللي هيجبرني أننا نكبر يا مُسعد ، أحنا هنبقى مجموعة أستثمارية ، العقود بتقول كدة ، وأنا عندي أستعداد أني أقف جنبك وأكبرك أوي في السوق ، بس زي ما هفيدك

أنت كمان لازم تفدني بس في وقت معين ، أنا يا عم هكملك المبلغ اللي ناقصك وأبقى أدهالي من المكسب ومن غير فوايد كمان ، الفلوس عمرها ما كانت هي المشكلة بالنسبالي .

- أمال إيه هي المشكلة ؟؟؟

تجهم معتصم فجأة ، أصبحت ملامحه مُفزعه وكأنه أرتدى وجه الشيطان نفسه ، برز ذلك الوعاء الدموي (الشريان الطولي بين الحاجبين في منتصف جبهته) .

- الخيانة ، الكدب ، وعدم رد الجميل ، أي إنسان خاين أو كداب أو يفكر أنه ميرودش الخدمات اللي عمتهاله ، بنسفه نّسف .

معتصم يكره أشياء فعلها شَريكه الجديد سابقاً بل وعززها بقتل أبيه !!! ، ابتلع مُسعد ريقه مُصدراً ذلك الصوت الذي ينُمُ عن خوفه الشديد ، أخرج دفتر شيكاته ، نقش عليه المبلغ الذي يملأ حسابه البنكي ثم أعطاه ببشاشة لمعتصم ليثبت حُسن نيته .

- إيه ده ؟؟
- شيك بكل المبلغ اللي معايا ، تقدر تصرفه من بكره الصبح ، هو طبعاً أقل من المبلغ اللي في العقود بس إن شاء الله فلوسك هتخدها من المكسب زي ما قلت .

أبتسم معتصم ثم طلب منه أن يظل الشيك بحوزته حتى ينتهي كل شيء ، وقع الجميع على العقود وسط فلاشات كاميرة هاتف تسنيم التي أرادت تخليد تلك اللحظات للأبد ، أعلن معتصم أن وقت الأحتفال قد جاء ، سيذهبون جميعاً إلى أرقى مكان في العاصمة من أجل الأحتفال بعدما يحتسون نخب توقيع عقود الشراكة ، دخلت تسنيم تحمل في يدها صنية عليها أكواب عصير ، أعطت لكل منهم كوباً ثم مدت يدها إلى مُسعد وهي تُبادلُه نظرات الرومانسية زاهية اللون ، أخد الكوب من يدها وتجرعه كله على دفعه واحدة وسط ابتساماتها التي تتلاعب بقلبه الصغير ، حانت منه نظرة خاطفه تجاه الفرنسي ليجده يجز على أسنانه ويستشيط غيظاً ، إذاً أكَد ذلك الأوربي أنه عاشقاً لها ، مرت ثلاثة دقائق ليشعر بعدها مُسعد أن رؤيته بدأت تتشوش ، جفونه تتثاقل شيئاً فشيء حتى صار لا يقوى على حملها ، دعك وجهه بيديه في الوقت الذي التقطت فيه أذنه صوت تسنيم الثقيل وهي تطمئن عليه ، ما يحدث يُذكره جيداً بماحدث لأبيه ليلة قتلِه ، جاهد في فتح عيناه ليجدها قلقة عليه ، تُحاول الأستفسار عن سبب ذلك الدوار الذي أكتنف رأسه فجأة ، سقط على الأرض ، أسقط القدر عيناه على الساعة التي تتوسط الحائط ليعلم أنها العاشرة مساءً قبل أن يستسلم للأغماء .

***

رؤية مشوشة ، صداع رهيب يقسم رأسه إلى نصفين ، نائم على ظهره ، يضع يداه على صدرُه وكأنه تلقى رصاصة في قلبه ، أطرافه تتحرك ببطء شديد وكأنه شُفِى لتوه من شلل ناتج عن جلطة ، جاهد مُسعد ليجلس نصف جلسة على الأرض ، يُحرك يداه على رأسه من أعلى وكأنه يُحفز الدماء للتدفق في شرايينها فتُخفف آلام الصداع الرهيب ، يتلفت حوله بعينين نصف مفتوحتين ليعلم أين هو ؟؟ وماذا حدث ؟؟ ، أنه لا يزال في شركة معتصم ، يجلس في نفس البقعة التي تناول فيها كوب العصير وسقط فيها على الأرض ، الساعة الثامنة ، نور الشمس لم يظهر حتى الآن ، ماذا حدث ؟؟ لا يمكن أن يكون كسوف كُلي للشمس وإلا أين تحذيرات هيئة الأرصاد والأعلام قبلها بستة أشهر على الأقل !! ، أنها الثامنة مساءً !! مُسعد ظل فاقد للوعي لأكثر من عشرين ساعة متواصلة ، أين معتصم وعائلتُه ؟؟ ، أين مُهجة قلبه الفاتنة ؟؟ ، قطع تركيزه منظر ذلك الفرنسي المغشى عليه ، نائم على وجهه ، يفرد أطرافه على هيئة حرف (X) ، الفرنسي أيضاً نائماً على تلك الشاكلة التي تؤكد سقوطه على الأرض فجأة مثلما حدث لمُسعد الذي زحف تجاهه في عُجاله ، هز جسده كقربة الحليب التي يُخض فيها اللبن فسترد جزءاً طفيفاً من وعيه المسلوب .

- آآآآه ، إيه الصداع الغبي ده .

أنه يتحدث العامية المصرية كأهلها !!!! لماذا أدعى معتصم أنه لا يفهم كلامنا العربي ولا يستطيع التحدث به ، مُسعد لا يفهم شيئاً مما يحدث حوله !!! ، زحف ببطء تجاه الفرنسي مُحاولاً أن يتناسى الآلم ، مد يدُه في جيبه ، أخرج محفظته ، نظر إلى بطاقته الشخصية التي تحمل أسمه الحقيقي " أحمد عبد الله " الجنسية مصري ، أتسعت عيناه وظل يدفعه بقوة حتى أسترد وعيه كاملاً ، نظر لهُ الفرنسي فتذكر كل شيء ، أخذ يرطم بلغة أعجمية كلاماً غير مفهوم ، أنقض مُسعد على رقبته ، ضغط عليها بقوة تمنع مرور الهواء عبر قصبته الهوائية .

- وحياة أمك ، أسمك أحمد عبد الله يابن ال.......... ، فين تسنيم ومعتصم ياض ، قتلتهم!!!!!

دفعه الفرنسي بقوة ثم أنتابه نوبه من السُعال نتيجة منع الهواء عن رئتيه .

- معرفش ، ما أنا كنت مرمي قدامك أهو .

أنقض عليه مُسعد للمرة الثانية كما ينقض الأسد الجائع على فريسته ، سدد لهُ ثلاثة لكمات موجعه في وجهه ، انهضُه من ملابسه ثم ضرب وجهه بركبته فنفجرت الدماء من أنف الفرنسي وسقط على الأرض ، لم يعطيه مُسعد وقت للتفكير ، جثم فوقه وهو يتذكر كم كان ممتعض الوجه وهو يُقدم لمُهجته ذلك الخاتم الذهبي .

- تسنيم فين ، ودتها فين ، خطفتها ولا قتلتها ولا إيه ؟؟؟ ، أنا من الأول مكنتش مرتاح لا ليك ولا لنظراتك وأنا بديها الخاتم ، أنطق يلا .

دفعه الفرنسي بقدميه في صدره فأبعدُه بعيداً ، صرخ في وجهه ليمتص ذلك الحماس الذي يسيطر عليه .

- خطفتها إيه يا متخلف أنت ، دا أحنا اللي شكلنا أتنصب علينا ، بص على الشيك والعقود وعلى حاجتك قبل ما تدور على تسنيم وزفت .

تسمر مُسعد مكانه قبل أن يدس يدُه في جيبه وهو مازال ينظر لهُ ربما هي خديعة من ذلك الفرنسي المزيف ، العقود .... الشيك ... الأموال بالكامل حتى محفظته لم يعد هناك شيئاً منهم بحوزته ، ظهر ذلك عليه بقوة مما دفع الفرنسي للتعقيب .

- طبعاً مش لقيها ، واضح كدة أننا أتنصب علينا ، ضحكوا علينا أحنا الأتنين .
- يعني إيه ضحكوا علينا أحنا الأتنين .
- يعني ضحكوا علينا أحنا الأتنين ، عندك عربية .

أماء مُسعد برأسه فأردف الفرنسي المُزيف " روح بص عليها " ، وثب إلى النافذة التي تطل على الشارع فلم يجد سيارته تقبع في مكانها ، بحث في جيبه على المفاتيح فلم يجدها ، أحتقن وجهه بشدة وعاد سريعاً إلى ذلك الفرنسي المُزيف قاسماً بالله أن يفصل رأسه عن جسدِه لكنه تحاشاه بمهارة هذه المرة ، أسقطه أرضاً ، بَرَكَ فوقه ، صرخ في وجهه .

- ممكن تبطل هبل بقى وتسمعني علشان نشوف هنعمل إيه في المُصيبة دي ؟
- ما المُصيبة دي أنت جزء منها ولا عاوز تقنعني أنك مش معاهم .
- قسماً بالله العظيم أنا ما معاهم ، أديني فرصة أفهمك .

صرخ في وجهه " أزاي وأنت كنت مشاركهم في كل حاجة "

بصراخ لا يقل عن صراخ مُسعد أخبرُه .

- ممكن تهدأ وتديني فرصة أشرح ، ممكن .

نظرة نارية أتتُه من الفرنسي دون رد فعل يُذكر .

***

" أحمد عبد الله " هو أسمه الحقيقي ، يقطن بحي السيدة زينب ، يمتلك من الملامح ما يجعلك تظن من الوهلة الأولى أنه أوربي خاصتاً إذا كنت ليس على معرفة سابقة به ، وجهه ناصع البياض ، شعرُه أصفر وعيناه مائلة للزرقة ، أنعم الله عليه بموهبة التمثيل والقدرة الغير محدودة في تقمص كافة الشخصيات التي يقابلها ويتعامل معها ، يستحضر نبرة صوت أي شخص يبغى تقليده ثم يتحرك مثلُه تماماً وكأن روح ذلك الشخص تلبست بجسدِه ، يمتلك موهبه تجعلُه يتبختر على البساط الأحمر في كافة المهرجانات العالمية لكنه ظل حبيس فرق هواة المسرح التي لا تأتي بثمارها لأنه لا يمتلك " واسطة " تعطي له تأشيرة الدخول إلى عالم أحتراف الفن بسبب أنه ولِدَ في زمان لا يعلو فيه صوت فوق صوت المحسوبية ، زمان لن تصبح فيه العامل المثالي ولن تستفيد فيه من كافة الخدمات التي تُقدم للمتميزين في شركتك إلا إذا أمتلكت " واسطة " في الإدارة العليا لشركتك أو إذا شَعَرَ مديرك " إن دمك خفيف على قلبه " ولن يأتي ذلك الأحساس إلا بالنفاق ، ستحصل على وظيفة يحلم بها أي شاب على درجة عالية من العلم والتفوق إذا كان أحد أقاربك يعمل داخل الشركة ، وقتها لن تتعرض لأسئلة المقابلة الشخصية السخيفة ولن يستطيع مسئول الـ HR تقديم عرضُه المميز في استعراض العضلات أمامك ما دامت هناك واسطة ، هكذا أصبح مناخنا ولهذه الأسباب أصبح مناخ ملوث لا يستطيع أن يعيش فيه إنسان ناجح أو على الأقل متعلم !!!

لم يجد ذلك الشاب المصري البسيط حلاً سوى الأتجاه إلى الكورسات الفنية لعلها تُتيح له فرصة حقيقية لأظهار مواهبه الدفينة لكنه أُصيب بحالة من الأكتئاب الشديد عندما قُرنت تلك المبالغ الباهظة التي ينفقها بزحفِه البطيء جداً نحو هدفه المنشود .

قطار العمر لا ينتظر أحد كما هو شائع ومعروف في ثقفاتنا الشرقية ، قريباً سيصل ذلك الشاب البسيط إلى بداية الثلاثينات دون أن يُحقق أي شيء يُذكر أو حتى يحصل على وظيفة براتب شهري ثابت ، هذه الأسباب دفعت والده للتجهم الدائم في وجهه والتململ كلما أتي إليه لطلب نقود لعلُه يشعر بتلك المأساه فيشنق أحلامه الفنية بنفسه ويتجه للحياة العملية كموظف !! ، أفعال والده السيئة في ظاهرها وفكره المحدود المطابق لتلك الحقبة الزمنية التي عاش فيها تركت أثارها السيئة في نفسه وجعلته يفكر في فرصة للهروب إلى أي بلد أخرى على الأقل لن يُسلم نفسه لوظيفة " الكاشير أو خدمة العملاء " سيبحث عن فرصة أفضل بكثير ، جلس على جهاز الكمبيوتر مُحاولاً الحفاظ على ما تبقى له من صبر وهو ينتظر دخول الويندوز الثقيل ، أستخدم مُحرك البحث جوجل الذي نادراً ما يخذل مُستخدميه خاصةً بعد إضافة خدمة " هل تقصد " عندما لا يفهم ما تبحث عنه ويبغى مساعدتك ، كتب داخل المربع الخالي " فرص عمل في الخارج " ثم ضغط Enter لتأتيه النتائج من كل فج عميق ، يحتاج أيام لقراءة جميع نتائج البحث ، هناك فرصة عمل في دولة ضمن دول العالم الأول ، أنه جروب للتوظيف على موقع التواصل الأجتماعي ، أقتحم الأعلان لكنه أقتحاماً متأخراً ، أحدهما ظفر به منذُ أيام يا لهُ من حظٍ سيء ، وقعت عيناه على إعلان يظهر أيضاً داخل الجروب ، شركة " ....." للميديا تعلن عن حاجاتها لممثلين شباب للمشاركة في Cast عمل في ما يُسمى أفلام المهرجانات ، إنتاج مصري فرنسي مشترك ، أنها فرصة ذهبية ، كان الشرط الوحيد هو إيجاد اللغات الأجنبية ، أحمد خريج ألسن علاوة على أنه كان

يدرس بمدارس أجنبية إذاً لن تكون هناك مشكلة من ذلك الشرط ، نقل الرقم ثم قام بالأتصال لتُخبره الموظفة ذات الصوت العذب أن الأختبارات ستكون في بداية الأسبوع القادم أي بعد أربع أيام ، عليه أن يكون متواجد في مقر الشركة في تمام الساعة العاشرة .

وصل لمقر الشركة في الميعاد والزمان المُحدد ، لوحة شفافة حُفر عليها بخط بارز أسم الشركة ، وضعت بجوار باب الشقة المفتوح على مصراعيه ، رواق طويل يصل بك إلى ردهة مليئة بعدد كبير من الشباب والبنات الذين يُلقبون بين زملائهم بالفنانين ، على اليمين كوانتر خشبي تجلس عليه فتاة بملابس مغرية " تسنيم " ، تقدم الشاب الفرنسي المزيف " أحمد عبد الله " منها فبتسمت لهُ مجاملة ، سألته في عُجالة عن بياناته ثم أخبرته أن دورُه هو الخامس والثلاثون ، رقم (١٣) هو من يقوم بالأختبارات أمام اللجنة الآن علماً بأن الأختبار سيكون بلغة أجنبية خاصتاً الفرنسية ، أومأ برأسِه قبل أن ينتظر دورُه هناك وسط هؤلاء المنتظرين ، دلف للردهه وهو يُحاول أن يطمئن نفسه أنه الأفضل ، جلس على كرسي خاوي ، يجول بعيناه في وجوه من حوله ، هناك شاب يبدو عليه الجنون ، يقف في قلب الردهة وسط الحاضرين يُحاول أستحضار شخصية سيُقدمها حتماً أمام لجنة التحكيم ، يضع قطعة دائرية من صلصال أسود اللون بجوار حاجبه الأيمن لتبدو كـ "حسنة " سوداء يقترب بها من ملامح " أحمد السقا " ، يُجاهد ليتجهم راسماً ملامح الشر على وجهه أقترب من مجموعة من الجالسين لا يوجد بينهم أي سابق معرفة ، مالَ عليهم ثم تحدث بلهجة صعيدية مفتعله .

- محدش من الحكومة هيخطي عندينا في الجزيرة ،،، واللي يلمح فيكم طرف عسكري يطُخُه ، مفهوم ؟؟

لا يُجيبه أحد فقط يُحاولون منع أنفسهم من أنفجار الضحك أمام ذلك الأداء المبالغ فيه ، أرتفع صوته وبدأ أكثر غلظة " ما طنطجوا " ثم أصدر بفمه صوت وكأن جهاز أنذار يصدر أنين تنبيهي " تيت ، تيت ، تيت " نظر خلفه وكأن الصوت يأتيه من هناك فعلاً وليس من فمه ، لتف حول نفسه ٣٦٠ درجة ، تضيق عيناه اليمنى وهو يُردد بأنفعال وبنبرة صوت تصل لحد الجنون .

- سامعني يا طارق بيه ، اللي هيلمح طرف عسكري هيطخه ، ولو ظابط هيقتلُه مطرحُه ، من النهاردة مفيش حكومة ، أنا الحكومة ، أنا الحكومة .

نزع الصلصال ثم دسه في جيبه وأخرج شارب عملاق ، كث ، أسود اللون ، لصقه على وجهه في اللحظة التي أقترب فيها منه شاب نحيف حاملاً عروسة خشبية من تلك التي تُستخدم في عقوبة الجلد ، ثبت عليها ذلك المتقمص نفسه في حين أن النحيف الذي يُعاونه بدأ يرش على وجهه رزاز مياه لتبدو كقطرات عرق برزت على وجهه وجبهته وهو يُجلد ، هرع النحيف إلى دُبره ، أمسك بحزام جلدي خلعه من حول بنطاله القماش مُتقمصاً هو

الأخر دور جلاد ، يضرب بالحزام على الأرض فيصدر صوت طرقعة ناتجة من أرتطامُه ببلاط المكان فيصرخ ذلك المتقمص بصوت فزَع منه من حوله .

- لا ، بالأقدمية أحنا سادة الدنيا وبالحداثة أحنا خير أمه أُخرجت للناس ، أحنا البلد الوحيدة آآآآآآآه ، اللي حدودها متغيرتش ، ملامح أهلها متغيرتش ، هو في كدة في الدنيا يا عالم لا ، السبع تلاف سنة حضارة بيقولو لالالالا ، الدكتور إمام بيقول لا ، عم عباس الضو بيقول لا .

صرخ بصوت هزَ جدران المكان " لالالالالالالا " خرج من الداخل أحد أعضاء لجنة التحكيم ، رجل وكور أسمر البشرة ، أنه " معتصم " ، خرج وعلى وجهه الغضب ، يزعق في الجميع .

- مين الحيوان اللي بيزعق ده .

أشارت تسنيم والجميع تجاه ذلك الشاب المُتقمص الذي لا يزال مصلُب على العروسة الخشبية ، صرخ في وجهه .

- أطلع بره يا عشوائي يا متخلف ، ملكش أختبارات يا همجي ، ثم أن الأختبار بلغة تانية غير العربية إيه الهبل اللي أنت بتعمله ده ، بره ، أطلع بره .

نظر بدهشة لهيئته التي وجده عليها على العروسة ثم أردف " عليه النعمة أهبل " كلماته دفعت كل الحاضرين لحالة من الضحك الهستيري فتحرك ذلك المُتقمص الذي أرتاب الجميع في سلامة قواه العقلية وهو لا يزال مصلُب على العروسة الخشبية وتحت تأثير شخصية الفنان " أحمد عبد العزيز "

- المخرج طردني وقالي لا ، المنتج هيقولي لا ، المونتير هيقولي لا ، بكره أبقى فنان كبير ويجي يعرضوا عليا أفلام وهقولهم لالالالالالالا .

خلع معتصم الحذاء وقذفه على ذلك الشاب لتنطلق بعدها دوي ضحكات الموجودين مرة أخرى ، وقعت عين معتصم على وجه الشاب القادم من السيدة زينب ، نظر لهُ طويلاً ، يتفحصه بإمعان وكأن به الصفات التي يحتاجها .

- أنت يابني بتعرف لغات ؟؟

سأل معتصم " أحمد عبد الله " فأجابه " آه ، أنجليزي وفرنساوي ، أنا أصلاً خريج ألسن دا غير اني كنت بدرس في مدارس لغات ، فكر معتصم قليلاً ثم أمر تسنيم أن تُدخله حالاً أمام اللجنة ، على الفور دخل أحمد ثم قدم مشهد أثنت عليه لجنة التحكيم المكونة من معتصم

وتلك المرأة التي لم تنبسط عضلات وجهها منذُ ولادتها والتي أدت دور زوجة معتصم فيما بعد .

- هايل جداً ، أنت رائع بجد ، أسمك إيه بقى ؟؟
- أحمد عبد الله .
- منين يا أحمد ؟؟
- القاهرة .
- أمممم ، ليك حد في أسكندرية .
- لا .
- تمام ، ملكش صحاب أو معارف .
- لا
- كويس جداً .

رفع سماعة الهاتف وتحدث بسعادة إلى تسنيم الجالسة على الكونتر الخشبي في الخارج.

- كل اللي عندك بره يمشوا ، و هاتي العقود وتعالي ، أنا خلاص لقيت اللي أنا بدور عليه .

ملئت الأبتسامة وجه ذلك الشاب البسيط ، أخيراً أعلن القدر عن ما تمنى سماعه يوماً ، سيُشارك في فيلم عالمي حتى ولو بلقطة واحدة .

- أنت أشتغلت قبل كدة في أي أعمال ؟
- آه .
- فين ؟؟

بصوت خافت ضعيف " فرق ومسارح هواه " ، غمغم معتصم فأردف أحمد سريعاً كمن يُبعد شبهه عنهُ " بس والله العظيم الناس كلها اللي أشتغلت معاهم قالولي ليك مستقبل وعجبهم أدائي جداً " ، بهدوء وأتزان أجابه معتصم .

- أنا عاوز يبقى عندك ثقة في نفسك أكتر من كدة ، أنت لو وحش أنا مكنتش هتعاقد معاك ثم أني أنا أصلاً عاوز واحد وشه متحرقش في أي دور قبل كدة حتى ولو كومبرس .

نزلت عليه تلك الكلمات الهادئة برداً وسلاماً فأراحته .

- تسمع يا أحمد عن شركة " ..... " للأنتاج ، هي شركة فرنسية .

لم يُريد أن يكشف عن جهله أمام معتصم فدعى أنه يعرفها جيداً ويتابع أخبارها عبر تطبيقها على نظام الأندرويد ، حرصه الشديد على عدم إضاعة تلك الفرصة دفعه للكذب والثناء على شركة وهمية ليس لها وجود من الأساس .

- جميل ، جميل جداً ، مبدئياً أنت نجحت وهمضي معاك عقد Test حقيقي .
- يعني إيه عقد Test حقيقي ؟؟
- بص يا أحمد ، أنت دورك في الفيلم هيبقى شاب مصري أتولد في فرنسا وعاش طول عمره هناك ، علشان كدة أول ما شفتك بره شدني ملامحك وشدني أكتر أنك بتتكلم فرنساوي ، أنت هتنزل مصر ضمن فريق عمل فرنسي علشان تعملوا مقارنة بين آدمية وحقوق الأنسان اللي عايش في المجتمعات الشرقية والعالم الثالث والأنسان اللي عايش في الغرب والعالم الأول ، الفيلم ده أحنا بنصلط فيه الضوء على بعض الأنتهاكات اللي بتحصل في دول العالم الثالث ، بنقدم رسالة يعني ، وزي ما قلتلك ده فيلم مهرجانات ، أنت دورك في الفيلم حوالي أمممم عشرين دقيقة متوزعين على الفيلم كله ، طبعاً عشرين دقيقة في فيلم بيشارك في مهرجان السعفة الذهبية حاجة محترمة جداً .
- طبعاً يا أستاذ ، بس بردوا حضرتك مقلتليش يعني إيه عقد Test حقيقي .
- أنت هتسافر معانا دلوقتي أسكندرية ، هنقعد هناك أربع أو خمس أيام ، هنروح لمجوعة من التُجار هناك عن طريق واحد تبعنا ، هنتعامل معاهم على أننا رجال أعمال وأنت صاحب شركة أستراد وتصدير فرنسية ، طبعاً طول فترة الأيام اللي أحنا هنقعدها دي أنت مش هتتكلم غيرفرنساوي ، التُجار دول يعتبروا الجمهور ، لو أقتنعوا بيك يبقى أنت نجحت ، مقتنعوش بيك أو قالوا حاجة للراجل اللي ودينا ليهم يبقى مش هقدر أتعاقد معاك لأن ده فيلم مهرجانات ، أنا عارف أنه أختبار غريب ورخم بس أعذرني مش هقدر أجازف بأسم الشركة اللي أنا شغال فيها .

مرّت ثلاث دقائق كاملة وأحمد يتحدث فيها مع نفسه ، يفكر في هذا الأختبار الحقيقي الذي يليق بشركة إنتاج عالمية ، ضغط معتصم على الزر القريب من يده اليمنى فدخلت تسنيم تحمل في يدها العقود ، وضعتها أمامه على المكتب ، تجول بعيناه بين سطور العقد المنقوش بالفرنسية ، بالفعل أنه عقد إنتاج مصري فرنسي مشترك ، الفيلم بعنوان " كوارث الشرق " وسيُشارك بالفعل في مهرجان السعفة الذهبية ، نظر إلى معتصم وأخبره أنه موافق فلم يتفاجيء وكأنه على يقين بذلك .

- العقود هتفضل هنا لحد ما نرجع من أسكندرية ويا تمضي يا أمَّا هنشوف حد تاني غيرك .
- موافق .
- كلم بقى أسرتك وعرفهم خط سيرك .
- أعتبره حصل حضرتك .
- معتصم ، أسمي معتصم ، رئيس أكاديمية التمثيل الخاصة بالشركة .

***

سافروا جميعاً إلى الأسكندرية ، أعوج لسان أحمد وأصبح لا ينطق إلا الفرنسية منذُ عبورهم بوابة المدينة لعله يحصل على إعجاب معتصم .

وصلوا إلى أحدى الفنادق الراقية التي تليق بنزلاء ينتمون إلى شركة إنتاج عالمية ، فتح أحمد نافذة غرفته التي تطل مباشرةً على البحر ، أغمض عيناه وتنفس بعمق وكأنه أراد أن يملأ صدره باليود ، أخبره معتصم أن يحافظ على أدائه الطبيعي ولغته الفرنسية حتى يقتنعوا بيه ويجتاز الأختبار .

تقابلوا مع مجموعة من التُجار عندما حل المساء ، تحدثوا معهم على أنهم أصحاب شركة " تسنيم للأستيراد والتصدير " وهناك شراكة مصرية فرنسية بينهم ، وقد جائوا عبر ذلك الرجل الذي ينتمي إلى الأسكندرية لفتح سوق تُجارية جديدة ، أخبروهم أيضاً أنهم من خلالهم يمكنهم تصدير وأستراد أي بضائع من وإلى فرنسا بواسطة ذلك التاجر الفرنسي الشاب الذي بدأ يحدثهم بلغته الأعجمية عن سعادته البالغة في العمل مع أحفاد الفراعنة !! ، أستخدم تلك " النفخة " التي تملأ أي مصري بثقة غريبة بالنفس ، أدى ذلك الفرنسي دوره على أكمل وجه ، أستطاع أن يقنع الجميع أنه مولود في بلد لم يزورها قط " فرنسا " .

وجد معتصم من خلال حديثه مع التُجار أن هناك أمراً بينهم ينقسمون عليه ، مُسعد ذلك التاجر الشاب الذي لا يحظي بشعبية طيبة بينهم ، شرع في شراء عداوة بعضهم منذُ أن أتى إلى مدينة الأسكندرية ، حاولوا كثيراً إقصائه لكن عون الله لهُ منع تنفيذ أي أمر دُبِرَ لهُ في الخفاء ، ربما هو الهدوء الذي يسبق العاصفة ، سيحتفل غداً بتوسيع تجارته وتحويلها من تجزئة إلى جملة بعد ثلاثة سنوات من الشغل المتواصل ، دعى الجميع للحضور ، البعض للأحتفال والبعض الأخر للأنتقام النفسي منه فيستعرض عضلاتُه أمامهم وكأنه يريد أن يعاقبهم على كرههُم الشديد لهُ ، أنقسموا على أنفسهم فمنهم من يرغب في الذهاب ومنهم من يمتنع ، نصحهم معتصم بالذهاب على أنه سوف يأتي معهم بحجة أنه يريد أن يتعرف على تلك الشخصية التي أثارت جدلاً كبير بينهم.

في اليوم التالي ذهب إلى الأحتفال لتمر الأحداث كما رويت من قبل ، ما وصل إليه مُسعد كان بسبب طمعُه الشديد في تجارة مشتركه بينه وبين معتصم والفرنسي بعد الأطاحه بكل التُجار .

جاء اليوم المشؤم الذي سافر فيه مُسعد إلى القاهرة لتوقيع عقود الشراكة بينه وبين معتصم وشريكه ، قبل وصوله لمقر شركة تسنيم بالمهندسين " شركة الأنتاج سابقاً " دار حديث قصير بين أحمد ومعتصم كان يتمنى فيه أحمد إنهاء كل شيء فالأمور قد بدأت تتخذ مساراً غير ذلك المسار المُخطط لهُ .

- أنا بقول كفاية كدة يا معتصم باشا .
- كفاية إيه يا أحمد ؟؟
- كفاية اشتغالات في اللي أسمه مُسعد ده لحد كدة ، أحنا سحبينه ورانا بقلنا فترة والنهاردة هو سايب أسكندرية كلها ونازل القاهرة مخصوص على أمل أنه هيمضي عقود شراكة ، في الأخر هيكتشف أن كل دي تمثلية والموضوع ده هيصدمه وممكن يعمله مشاكل نفسيه ، دا غير أنه ممكن يعملنا أحنا مشاكل ، أنا رأيي تتصل بيه ونخليه يرجع علشان حرام كدة .

نظر له معتصم بعينان لاح فيهما الخبث الشديد .
- عاوز تقول أننا بنعمل حاجة حرام .
- أنا مقصدش حضرتك بس الدنيا وسعت مننا أوى وهو أوهامه عماله تزيد يوم بعد يوم ، من حق حضرتك طبعاً أنك تختبرني بس مش على حساب الناس وأحلامهم .

حَكَ معتصم ذقنه ثم سأله بهدوء ماذا يمثل الفن بالنسبة لهُ فأجابه أحمد تلك الجابة المعتادة " الفن رسالة "
- هايل ، مُسعد مش جي النهاردة علشان يمضي عقود شراكة زي ما أنت قولت ، مُسعد بيجري ورانا علشان خاطر تسنيم .
- مش شرط على فكرة .
- لا شرط وأنت عارف كدة كويس .
- ولو يعني ، طب ما يمكن بيحبها فعلاً ، متنساش أنه مش مجوز .
- نظراته الخبيثة ليها أكبر دليل أنه مش بيحبها ، أنت مشفتش يوم الحفل بتعته كان بيبصلها أزاي ، عينه كانت مليانة إغراء ، مُسعد بيحب فيها جسمها مش روحها ، أنا بقى قررت أني أعلمه الأدب شوية علشان ده إنسان مش محترم يا أحمد ، وعلشان الفن رسالة أنا قررت أن الرسالة بتعتي أنا وأنت أننا نعلم مُسعد درس مينسهوش طول عمره ويتعامل مع بنات الناس بشكل محترم ، دا غير كلامه بقى عن أصحابه التُجْار ووصفهم أنهم عالم زبالة ووحشين ، ما أنت كنت قاعد ، وعموماً يا سيدي علشان متزعلش أوي كدة النهاردة أخر يوم هأدبه فيه بعدين هتصل بيه بكره وأعرفه كل حاجة أمَّا بالنسبة للأختبار فأنت نجحت وبتفوق كمان وهتمضي العقود بعد مقابلة النهاردة .

أخرج من جيبه رسالة نصية مكتوبة بالفرنسية ، أعطاها إلى أحمد وهو يبتسم .

- ده التقرير اللي بعته للشركة النهاردة ، بص يا أحمد بص وأنت تعرف أنا قدرت موهبتك أد إيه ، بس أنا كان لازم أعلم مُسعد ده الأدب لأن زي ما أنت قولت الفن رسالة .

أستبدل معتصم اللوحة الشفافة المعلقة بجوار الشقة بأخرى حفر عليها بخط بارز على طريقة برايل " شركة تسنيم للأستيراد والتصدير " ، أمَّا ما جعل ذلك المتقمص الفرنسي يستاء هو الخاتم الذهبي الذي أحضره مُسعد بـألاف الجنيهات بسبب وهمه بحب تسنيم وما زاد أستياءه هو قبول تسنيم لهذا الخاتم وهي تعلم جيداً أنها مجرد لعبة ، لم يحتقن وجهه بسبب حبه لها كما ظن مُسعد بل لأنه يرى أمامه مجموعة من البشر تستغل وهم شخص وقع بين أيديهم ، تُكبدُه خسائر فاضحه بحجة تعديل سلوكِه !!!

تجرع ذلك المتقمص الفرنسي المتيم بحب الفن العصير ليغشى عليه بعد مُسعد مباشرةً ويستيقظ معه في اليوم التالي .

أستكمل مُسعد حديثه مع أحمد بعدما قصَّ عليه قصته مع معتصم ، كيف قابله وكيف حدث ما حدث أقترب من أحمد ، طأطأ رأسه قائلاً " أحمد بقى ولا أياً كان أسمك بص كدة على قفايا ، شايف الختم شايفه " قبض على ملابسه بقوة قبل أن تتبدل ملامحه وتبدو مثيرة للتوجس .

- عليه الحرام من ديني لو ما قلتلي ألاقي الناس دي فين لكون رايح فيك في ستين داهيه.

دفعه أحمد بحرقة شاب نُصِب عليه وتُجِرَ بأحلامه .

- يا عم أنا زيك بالظبط أفهم بقى ، أنا أتلعب عليه زي ما أتلعب عليك ، أحنا الأتنين أتنصب علينا.
- وأنا أضمن منين الكلام ده .

بأنفعال .

- ما أنا لو تبعهم كان زماني مشيت معاهم ، ما أنت لقتني مرمي جنبك ع الأرض يا أخي .

***

هبطوا سوياً إلى حارس العقار وبسؤاله أكتشفوا أن معتصم قام بتأجير تلك الشقة منذُ شهر واحد فقط من حارس العقار نفسه بمبلغ خيالي دفعه لعدم أحتياجه لأوراق أو عقود ، أنتهى كل شيء بتلك الأجابة المحبطة وأُسدل الستار عن جريمة النصب التي تعرض لها مُسعد ، الشيك ، لازال هناك أمل في الشيك ، يجب أن يستعلم عن الرصيد لكنه لا يوجد بنك يعمل في هذه الساعة المتأخرة من اليوم علاوة على أن محفظته سُرقت وكان بها بطاقته البنكية فلم يتمكن من التعامل مع حسابه للأستعلام عن رصيده ، وغداً الجمعة لهذا السبب

كان يرفض معتصم أن تتم المقابلة يوم الخميس أو الجمعة حتى يتمكن من صرف الشيك في صباح اليوم التالي ولم يتمكن هو من الذهاب إلى البنك سوى يوم الأحد علاوة على أنه لا يمتلك بطاقة شخصية .

عاد مُسعد إلى الأسكندرية والقلق ينشب مخالبه القوية في قلبه ، مفاتيح مَتْجَرُه سُرقت ضمن الأشياء التي تم سرقتها من قِبل معتصم وعصابته وهو تحت تأثير ذلك المخدر الغاشم ، فهل تنتظرُه مفاجئة أخرى مدوية بحي الأنفوشي ، وصل إلى هناك فضربته الصدمة الأولى ، قام معتصم ومن يُعاونه بسرقة كل الملابس التي كانت تملأ متجرُه لهاذا السبب سُرقت المفاتيح ولهذا السبب جعلُه يتجرع ذلك المخدر .

مرت أيام عدة حتى تمكن من أستخراج بطاقة شخصية بديلة لتلك التي سُرِقة منه ليكتشف أن معتصم تمكن من صرف الشيك فأصبح حسابه البنكي خاوي تماماً ، أصابته أولى غيبوبات السكر الذي أصاب جسده حُزناً على ما وجدُه في أنتظاره بمرور الوقت ، وقع مُسعد فريسة لتلك الخطة الخبيثة التي وضعها ذلك النصاب المتمرس في مهنته .
أشتد عليه المرض ولا يوجد في حياتِه من يرعاه ، لا يملك زوجة ولم يعمل لكسب صديق حقيقي يعتني به في مثل هذه الظروف ، فأصبح صيداً سهلاً للأهمال والمرض ، حينما تتملك منه غيبوبة السكر تُفقده وعيه ويظل كالجثة الهامدة لساعات تحت سيطرة المرض ينتظر الأفراج عن وعيه وعودة الأرسال إليه مرة أخرى .

مُسعد الآن لا يمتلك أي دوافع تُبقيه في حي النفوشي أو في الأسكندرية أو في الحياة بشكل عام ، قرر بيع المَتْجَر والشقة التي يقطن بها ليعود إلى مسقط رأسه بشارع باب البحر ، جاء تاجر غريب يبدو أنه لا ينتمي إلى الأسكندرية فهذه هي المرة الأولى التي يراه فيها يبغى شراء المَتْجَر والشقة فور إعلانه بيعهم ، وافق على السعر المطروح دون أي مناقشة .

- ألف مبروك يا باشا .
- ألف مبروك عليك أنت لأنك أشتريت أنما انا بعت .
- الله يبارك فيك ، بس أنت بعت الشقة بعفشها هو أنت هتسيب المنطقة ؟
- هسيب أسكندرية كلها ، راجع تاني القاهرة .
- ليه كدة يا أخي دا أسكندرية جميلة حتى .
- أهو شوية ظروف كدة .
- ربنا معاك ويوفقك ، بس لازم نعمل معاك واجب الأول ، انا عازمك على شوية سمك حلوين بمناسبة البيع .
- مفيش لزوم لأن أنا مسافر دلوقتي .
- دلوقتي !!!! الساعة ستة يعني مفيش ولا بنك شغال ، خليك حتى للصبح وتعالى أعزمك العزومة اللي وعدتك بيها .
- لا أنا هرجع القاهرة بيها مش هحطها في بنوك .

- هتمشـي بيهـا كـدة !!! طـب أفـرض طلـع عليـك حراميـة ، متنسـاش أننـا فـي الشـتا والحركة خفيفة وخصبه لأي قُطاع طرق ، بلاش لو قابلك لجنة ولقت معاك شنطة الفلوس دي هتعملك مشكلة .
- لا ما انا معايا عقود للبيع وكلها بتاريخ النهاردة .

يبدو أن ذلك التاجر الغريب غير مقتنع ، أومأ برأسه وهو يُردد " عموماً ربنا معاك " ثم طلب منه صورة تذكارية بكاميرة هاتفه الجوال لتخليد تلك الذكرى وذلك اليوم الذي يبدأ فيه تجارته في مدينة الأسكندرية ، تأبط ذراع مُسعد وأُلتُقطت لهم مجموعة صور بواسطة شاب كان يمر أمامهم قدراً ، ودعه مُسعد ثم استقل سيارته التي ابتاعها حديثاً والتي تقل بكثير عن تلك التي سرقها معتصم .

أنطلق فـي رحلـة العـودة إلـى القـاهرة ، قلبُـه يُحدثـه بصـوت خافـت ، يوصـيه أن يبقـى مستيقظاً فهو يشعر أن هناك أمراً مـا سـيء سـوف يحـدث لـهُ ، لكـن مـاذا سـيحدث أسـوء ممـا حدث ، ماذا سيحدث أسوء من تلك الخسائر التي تكبدها دفعة واحدة ، ومرض السكري الذي استوطن جسده إلى نهاية العمر ، أنها لعنة والدُه ، أراد لهم الشقاء حياً وميتاً ، حـاول تشـتيت ذلـك الفكـر السـلبي فـالتفكير فـي الماضـي لا يـأتي بثمـاره ولـن يُغيـر شـيء علـى الأطـلاق ، الأفضل هو ترتيب أوراق وأفكار الخطوات القادمة ، ماذا سيفعل حينمـا يصـل للقـاهرة ؟؟ لا يريد أن تلتهمه نظرات الشفقة من جيرانِه وأخيه ، لا يريد الأستماع إلى مواسات أُناس يُدرك جيداً أسلوب نفاقهم من أجل مواكبة الحياة ، أُناس سيحولون حتماً ما حدث لهُ لجلسات نميمـة قبل أن يخـرج مـن بيـنهم مـن يـدعي الحكمـة ليُخبـر الجميـع أنـه عقـاب السـماء لكـل مـن يهمـل والدُه بعد موت أبيه ، لعنة الله على بشر لا يجدوا ما يملأ فراغهم سوى الحديث عن غيرهم ، مُسعد يقود سيارته على سرعة بطيئة لا تتناسب مع سيارة تسير على طريق سريع تحسباً منـه لأسـتقبال ضـيف ثقيـل - غيبوبـة سـكر - فـي أي وقـت ، بجـواره مجموعـة مـن الحلـوى ستوعيد لهُ نشاط أجهزته إذا داهمه أنخفاض مفاجيء في منسوب السكر .

بعـد مشـقة دامـت لسـاعات وصـل مُسـعد إلـى بوابـة مدينـة القـاهرة ، وصـل فـي وقـت مُضاعف لكن على الأقل دون خسائر ، يشعر بإرهاق شديد ، أشار إليه شاب أبيض ممتلـيء ظهر أمامه فجأة وكأنه برز من الـلا شـيء بعد عدة أمتـار مـن بوابـة القـاهرة ، يحمل شـنطة صغيرة ، توقف مُسعد بسيارته فهذه الفكرة تـداعب عقلُـه مـن قبـل أن يُشير إليـه ذلـك الممتلأ فهو بحاجـة إلـى قسط من الراحـة ، أقتـرب منـه الشـاب الأبيض الممتلـيء الـذي يغلـب علـى ملامحـه الأستفزاز خاصـتاً حينمـا يرسم تلـك الأبتسامة المصـتنعة الـذي أعتـاد عليهـا منـذُ أن عمـل منـدوب مبيعـات ، تشـعر مـن داخلـك أن هنـاك قـوة رهيبـة تـدفعك لتصـفع ذلـك الصـدغ الأبيض الممتلـيء ، ألقـى عليـه التحيـة ثـم حَـاوَلَ إقناعـه بخفـة دم تُجبـرك علـى أن تبصـق فـي وجهه أنه من المحظوظين ، نحن في أواخر ديسمبر نفس ذلك التـاريخ أُفتُتِحت فيـه الشـركة التي يعمل بها منذُ خمس سنوات ، بهذه المناسبة توزع الشركة الهدايا على المـاره كنـوع مـن أنواع الدعايا لها ، مدَّ يدُه بكـارت مُغلف بغـلاف بلاستيكي مُحكم الغلـق ، مربـع صـغير فـي وجهة الكـارت مُغطـى بتلـك المـادة الفضـية التـي تُخفـي الأرقـام فـي كـروت شـحن الهواتـف ،

يطلب منه ذلك الممتلـيء أن يخدش تلك المادة الفضية لتظهر لـهُ جائزتـه المجانيـة ، أخبرهُ مُسعد وهو لا يزال تحت تأثير أنكسارات الخسائر أنه لا يبالي بمثل هذه الأمور علاوة على أن الوقت لا يسمح بمثل هذه المهاطرات ، لن يُزحزح هذا الكلام أي شخص يعمل مندوب مبيعات فما بالك لو كان مندوب مبيعات سَمِج !! ، أزداد ذلك الممتليء في بث لزوجته حتى وصل مُسعد مع الأصرار الدائم إلى مرحلة إن لم يتحكم فيها بأعصابه سينتهي به الأمر خلف القضبان على الأرض جوار دلو مخصص للبول ، لم تؤثر تلك النظرات القاسية في مندوب المبيعات الملتصق بسيارة مُسعد بمادة قادرة على تثبيت فيل ضخم مكانة ، لا حل سوى تنفيذ ما يريد وإلا لن يرحل للأبد ، أخذ منه الكارت ثم حررهُ من غلافه البلاستيكي الشفاف ، كشط تلك المادة الفضية بأظافره مُتجاهلاً تحذيرات الأطباء الشديدة لهذا الفعل ، ظهرت لـهُ كلمة بخط صغير يحتاج لعدسة مُكبرة ليقرأها ، أحتاجت منه أن يدفس وجهه داخل الكارت ليعلم ما كُتِب ، " حظ سعيد المرة القادمة " ما تلك السخافة الفجة ، أحتقن وجهه ونظر إلى ذلك الأبيض الممتليء الذي بدا من البداية كدب قطبي ممل ليُهشم عظام وجهه فلم يجدُه !!! لا أثر لـهُ تماماً ، أختفى وتلاشي نهائياً وكأنه حفنة من ملح سقطت في كوب مليء بالماء ، ألقى الكارت على " التابلوه " السيارة وهو ينعت ذلك البدين بأقذر الألفاظ ، أبتعد بمؤخرة رأسه على ظهر كرسي القيادة بعدما أزاحهُ إلى أقصى مدى مُحدد لـهُ ليبدو كشازلونج وثير ، أنفه بدأت تستقبل رائحة غريبة يصعب عليه تحديدها ، رائحة لم تُداعبه من قبل ، ما تلك الرائحة الغريبة ؟؟ سؤال مُلّح بدأ يتكرر في رأسِه دون إجابه ، أقترب بيدُه تجاه أنفه لتُهاجمه الرائحة بشراسة ، إذاً مصدر الرائحة يدُه !!!! ، ماذا فعل بها ، تذكر الكارت اللعين في حين أنه بدأ يُداهمه ضيق غريب في التنفس ، الرؤية تتعذر تدريجياً ، تكسو عيناه غشاوة بيضاء وكأنه يفتحهما تحت سطح الماء ، صداع غريب شَرَعَ يكتنف رأسه ، يضرب جدرانها بلا هوادة ، أجفانه صار لا يملك فرض رأيه عليها ، تتثاقل تدريجياً حتى غدا لا يستطيع حملها ، أنها أشرس غيبوبة سكر تهاجمه منذُ أن أُصيب بالمرض ، تناول بعض الحلوى لتكسبه قدرة على المواصلة ، لمح في مرآة السيارة الجانبية ذلك الممتليء – مندوب المبيعات – يتقدم تجاهه وبصحبته رجل لا يستطيع تحديد ملامحه ، هناك أمراً ما سوف يحدث ، هذه ليست غيبوبة سكر أنها أعراض شيئاً أخر لـهُ علاقة بالكارت ، لم يُقاوم الأرتخاء الذي يتمكن منه شيئاً فشيء حتى خلد إلى نومٍ عميق .

هواء بارد جداً يضرب جسده من كل جانب ، تناولت أذنه أصوات سيارات تقطع خيوط الهواء بسرعة فائقة ، حصى صغير يتطاير في وجه مُسعد المُلقى بجوار أحدى الطرق في مدينة السادس من أكتوبر ، تُغطيه مجموعة كبيرة من الملابس التي كانت تمليء شنطة سفره ، بدأ يستعيد وعيه تدريجياً ، الرؤية غير واضحة ، هناك صوت آذان يأتي خافت من مسافة قريبة وكأنه آذان في وقتٍ غير رسمي ، ماذا يحدث؟؟ حاول أستجماع أشلاء أفكاره قدر المستطاع ليكتشف أنه مُلقى على جانب طريق ، تُغطيه مجموعة كبيرة من ملابسه التي كانت تملأ حقيبته ، أفرغها أحداً فوقه وكأنه أراد أن يُخفيه عن الأنظار ، الكارت ، مندوب المبيعات الممتليء ، الرائحة الغريبة التي هاجمته ، منظر مندوب المبيعات وهو يظهر في مرآة السيارة يقترب منه ، تذكر كل شيء لكن أين السيارة !!! نظر للسماء ليجدها تمتلأ بالنجوم ، شعر ببرد قارس لا يأتي دائماً إلا قُبَيْل أنتهاء غَسَق الليل بمدة زمنية قصيرة ، إذاً

هذا الآذان هو آذان التنبيه الأول الذي يسبق آذان الفجر لذلك هو خافت ، نظر لساعة يده فلم تكن هناك ، دس يده في جيبه فلم يجد هاتفه ، إذاً أتضح الأمر وتشكلت الحقيقة أمامه مع أختفاء السيارة ، أنها عملية سرقة منظمة لأبعد حد ممكن تصوره ، نظر حوله قبل أن تُأكد لهُ نفسه أنه لم يتوقف في هذا المكان قبل أن يفقد وعيه ، وقعت عيناه على ورقة بيضاء تقبع جواره ، يبدو أن أحداً ما دفن سراً بداخلها وإلا لماذا تقبع في ذلك المكان المُلفت ، فتحها بتوجس في البداية ، أها رسالة نصية كُتيبت ببرنامج ال Word .

" عزيزي مُسعد ، كم أنا مُشفق عليك ، لا أعلم كيف وقعت في طريقي ، أنا لم أكن أقصدك ولا كانت هناك معرفة سابقة ، فقط طمعك وجشعك الزائد هو من أسقطك في طريقي ، أستطعت في خلال شهر واحد أن أسلُب منك كل ما تملك ، سقطت في خديعتي الأولى أسهل مما توقعت ، سقطت لأن عيناك لم تفارق قسمات تلك الفاتنة متفجرة الأنوثة ، أنا لا ألومك يا صديقي فمفاتنها حقاً لا تُقاوم ، أنها جزء من خطتي العبقرية لألتهم منك تلك المبالغ الباهظة ، كنتُ أخشى أن تسألني عن وثائق أو أوراق رسمية لتتأكد من ملكيتي لشركة الأستراد والتصدير الوهمية ، أمراً كان بمثابة نقوس خطر يضرب في رأسي ليل نهار مُهدداً بعد أكتمال جريمتي لكن مفاتن تسنيم منعت عيناك من رؤية الحقيقة وأي شيء أخر ، أستطعت بذكائي أن أحول نشاط وحماس شاب موهوم فنياً لصالحي ، المسكين كان يعتقد أنه يمكنه أقتحام أي مجال في بلدنا بالمجهود الشخصي والإرادة فقط !! ، كم أنا مُشفق عليه وعلى من مثله لكنني لا أستطيع إنكار الخدمات التي قدمها لي في الحصول على شيك بمبلغ لا يُستهان به وبضاعة بمبلغ باهظ كان يعُجُ بها مُتجرك الوحيد ، أخذتها بعدما تمكنت من سرقة مفتاح المَتْجَر وأنت تحت تأثير المخدر الشيطاني الذي جعلتك تتجرعه دون أن تشعر ، وأخيراً سيارتك الفارهه التي لا تليق إلا بتاجر مثلك يا مُسعد ، بمتابعتك بعد ذلك أستطعت أن أبتاع منك مُتجرك وشقتك التي كنت تقطن بها في الأسكندرية بعدما أعلنتُ عن رغبتك في بيعهما عن طريق أحدى رجالي المخلصين ، أستطاع أن يتقمص دور تاجر غريب عن الأسكندرية يبغى شراء مُتجرك وشقتك لتسقط في فخ لم أعدُه لك مُسبقاً ، أخبرته أنك ستسافر إلى القاهرة حاملاً معك ذلك المبلغ الكبير ، قيادتك البطيئة أعطتني مجالاً واسعاً لأرسل رجل أخر يقف في أنتظارك بعد بوابة مدينة القاهرة بعدما أرسلت لهُ تلك الصورة التي تم ألتقاطها لك أنت ومن أبتاع المُتجر والشقة ، صورة ركز من ألتقطها على سيارتك الجديدة فقط ليُسهل عمل مندوب المبيعات المزيف ، نعم يا صديقي من ألتقط لكم الصورة كان ينتمي لنا وجزء من خطتي أيضاً فكما تعلم عملنا يتطلب الدقة في كل شيء ، حتى أختياري لشخص سمج يُحاول إقناعك أنه مندوب مبيعات كان ضمن عبقريتي الفريدة في وضع الخطط ، فلولا سماجته ودمه الذي إذا وضِعَ على الميزان سيجعل مؤشرُه يلتف حول نفسه عدت مرات من ثِقلِه لما أخذت منه الكارت الوهمي المعبأ بمادة " البروندانغا " تلك المادة السحرية القادرة على سلب وعي أي إنسان بسهولة مهما كانت قوة جهازه العصبي ، طريقة جهنمية أبتكرها مجرم مبتدأ لا يملك خبرتي فسقط في يد الشرطة وأعترف بكل شيء ، نَقلَ ما قيل على لِسانه صحفي شاب مجتهد يعمل في جرنال مغمور وقعت صفحاته في يدي قدراً بعد ألتهم السندوتشات التي كانت بداخلها فقرأتها وطبقتها عليك يا صديقي وحصلت منك على الأموال التي

دفعتها ثمناً للمتجر والشقة مرة أخرى وحصلت أيضاً على سيارتك الجديدة التي لم تكن تليق بك هذه المرة لكن لا مانع عندي من أخذها ، أخبرني يا مُسعد أي ذنب أقترفت في حياتك لتقع في طريقي هكذا فريسة سهلة هزيلة لا تقدر حتى على المقاومة ، أي ذنب أقترفت لأحصل منك على ممتلكات وأموال لم أحصل عليها دفعة واحدة منذُ أن عملت في النصب ، أريدك أن تعلم يا مُسعد أنك أول شخص يتعرض لعملية نصب على يدي ثم أترك لهُ رسالة نصية تقديراً مني لهُ ، ولأثبت لك هذا التقدير سأخبرك بشيء ربما سيوفر عليك الكثير ، لا تحاول العودة إلى الأسكندرية مرة أخرى ، المَتْجَر والشقة تم بيعهم بنصف ثمنهم تقريباً لشخص لا علاقة له بنا ، نصف ثمن ممتلكاتك ثروة جديدة أُضيفت لنا فلا تنسى أننا أعدنا نقودنا مرة أخرى ، الوداع يا مُسعد ، الوداع يا صديقي

المخلص
معتصم ، ملحوظة مجرد أسم مستعار أيضاً

الآن ظهرت الحقيقة وأصبحت واضحة وضوح الشمس في كبد السماء ، أُسدِلَ الستار على كل شيء وعاد مُسعد إلى باب البحر بخُفي حُنين ، عاد فعلم أن والدته توفت نتيجة الأهمال الشديد والحالة النفسية السيئة التي عانت منها داخل أحدى دُر الرعاية بعدما تخلى عنها أبنائها ، ما حدث لم يترك أثاراً سيئة مثلما ترك مشاهدته لأخيه مصطفى الذي شحب وجهه بشكل مرعب وبرزت عيناه إلى الخارج ، نُحِل جسدُه وبات بادي المرض ، ما حدث له ولأخيه لم يكن صدفه ، هو أنتقام الله ، أدرك ذلك السبب خاصتاً حينما علم مني أن جميع أموالي وأموال والدتنا نفذت وأنتهت على جلسات الكيماوي بعدما أُصيبتُ بالسرطان .

***

مصطفى يجلس بجواري داخل شقة مكسيكي يقص لنا قصتُه هو وأخوه مُسعد ، كيف بدأت وكيف أنتهت ، أتابعه بتركيز طالب في أمتحان مادة سَمِجة ، أُحاول تصور كل مشهد وموقف رواهُ لي ، أُتابع بدقة ملامحُه المحاصره بآلام كل ما حدث لهم .

- هي دي بقى قصتنا أنا وأخوايا بأختصار شديد .
- يااااااااه القصة دي مأثرة جداً يا أستاذ مصطفى وفيها عظة كبيرة أوووي .
- طبعاً وإلا مكنتش جيتلك .
- أنت أخواتك أخبارهم إيه دلوقتي ؟؟
- مُسعد حالته النفسية زي الزفت ، عارف والله ساعات بلاقيه بيكلم نفسه ، بقولوا شد حيلك يا مُسعد علشان متتجننش ، مفيش فلوس نتعالج بيها ولا في حتى شغل ، خلاص كله بح .

تأثرت كثيراً بما حدث لهم ، أدرك مصطفى ذلك الأحساس فعقب قائلاً .

- متزعلش أوي كدة ، متنساش أنه أصر يدفن أبوه حتى بعد ما عرف أن لسه فيه الروح ، الجشع كان عامي قلبه وبصيرته ، والشيطان كان ضاحك عليه بالفلوس بس ربك بالمرصاد ، وكما تُدين تُدان ، ويمكن هو ده الدرس الأكبر اللي أتعلمناه في كل اللي حصلنا ده .
- يااااه ، بجد حاجة صعبة أوي .
- أنا أصريت أن الناس تعرف القصة دي لما مكسيكي حكالي على فكرة الكتاب ، وقلتلك أول سبب دفعني للموضوع ده أن لازم الناس تعرف أن كما تُدين تُدان ، وزي ما هتعمل هيتعمل فيك ولو بعد حين ، وياريت مينسوش كلام ربنا " فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ " .

أغمضت عيني في حزن شديد ، تأثرت بهذا الكلام الصعب وتلك النهاية التي لا تُحتمل ، مصطفى مُصاب بورم خبيث في المخ ، عقاب الله لهُ على سكوته عن الحق .

- متزعلش أوي كدة ولا تاخد الموضوع بتأثر شديد ، الحصل حصل الحمد الله ، المهم أن الناس تستفيد منه وتحاول تبعد عن السكة الحرام ، ممكن يكون اللي بيحصل معانا ده مش ، لا مش ممكن دا أكيد اللي بيحصل مع كل واحد فينا مش سوء حظ ولا فقر إنما دا جزاء على الذنوب اللي بنرتكبها يوم بعد يوم .
- مش عارف أقولك إيه يا أستاذ مصطفى والله .
- أنا اللي لازم أشكرك علشان أنت أديتني فرصة ممكن تكفر عن ذنوبي وتخفف عقابي عند ربنا ، ممكن تكون قصتي دي علم يُنتفع به بعد كدة ، أتمنى بجد أن ربنا يغفرلي ويسامحني ، الحمد الله .

أبتسم مجاملاً ثم أنصرف بعدما طعن قلوبنا بقصته الموجعه .

الحياة كدة

مرَّت نصف ساعة كاملة منذُ أن ترك مصطفى شقة مكسيكي وأنصرف ، تجرعنا فيها كماً هائلاً من العصائر والمشروبات ضمنت لنا عدم أصابتنا بالجفاف حتى ولو قررنا الذهاب إلى بيتنا سيراً في أجواء ترتفع فيها نسبة الرطوبة إلى أقصى مداً لها ، دخل علينا شاب في منتصف العشرينات ، نظرت في عيناه طويلاً فوجدت شقائاً لم ألقاه في عين أحد منذُ فترة سحيقة ، أرتفع صوت مكسيكي مرحباً .

- تعالى يا وسام ، تعالي أحنا هنا .

بعُجالة أجاب وسام .

- هو فين الكاتب اللي أنا جي أقابلُه .

أرتفع صوتي .

- أنا أهو يا وسام .
- أنا عاوز أتكلم معاك علشان أنا مخنوق .

نظرت إليه بأهتمام بالغ .

- وأنا عاوز أسمعك .
- أنا عاوز القصة بتاعتي تتحط في كتابك علشان الدنيا مبقاش فيها أي خير .

ألتمعت عيناه بالدموع فحرك شغفي تجاه قصته ، أنتصبت من مكاني وهرعت إليه أُخفف عنه ما هو فيه .

- حاضر والله ، حاضر من عنية روق بس كدة .
- قصة وسام فيها ظلم كبير أوي .

قالها مكسيكي في أسف .

- أنت شوقتني يا مكسيكي ، أهدي كدة يا وسام وأحكيلي إيه اللي حصل .
- الدنيا خلاص مبقاش فيها أي عدل ، الكذب والخديعة والمكر بقوا هما السمات الأشهر في الغابة اللي أحنا عايشين فيها دي ، قصتي فيها تعنت من الشرطة على الرغم من أنهم عارفين أني مظلوم .

***

في ليلة بهماء كالعماء الأول ، لم يولد في سماها قمر يُنير كبد السماء ، أنهى وسام تصفحُه على شبكة الأنترنت بحثاً عن وظيفة تليق به وبشهادته التي حصل عليها بعد أكثر من خمسة عشر سنة في التعليم ، لا يُشبع ذاته ذلك المشروع الصغير الذي اضطر إليه بدل الجلوس على المقهى وسط الأصدقاء يلعن ويسُب حظه المشئوم في عدم أمتلاك " واسطة " قوية تُمكنُه من الحصول على وظيفة جيدة ، وسام يمتلك متجر صغير جداً لا تتعدى مساحته الداخلية خمسة أمتار ، بالطبع تشعر بأختناق شديد وأنت داخل المتجر خاصتاً في فصل الصيف ، المتجر له واجهة شفافة من الزجاج يستعرض بداخلها مجموعة من الهواتف الجديدة وأخرى مستخدمة قبل ذلك بأسعار تتناسب مع كل من يريد أن يمتلك هاتفاً ذكياً ، ساهمت أسرته متوسطة الحال في ذلك المشروع فقط من أجل أن تنتشلُه من الأنتظار المقيت في طابور العاطلين ، لكن ذلك المشروع مُتناهي الصِغر لم يُرضي وسام ولا طموحه حينما ألتحق بكلية الهندسة قسم الأتصالات لذلك هو ينبش بأظافره على شبكة الأنترنت ليجد وظيفة تُرضي طموحُه وشهادته التابعة لكلية القمة حسب تصنيف الدولة ، أنضم إلى كل المجموعات والصفحات الخاصة بمن يبحثون عن فرصة عمل على موقع التواصل الأجتماعي ، صفحات تمتلك شعارات تعطي لك أحساساً أنك بمجرد أن تضغط على كلمة " أنضم " ستجد من يهاتفك ليُحدد معك مِعاد المقابلة الشخصية ، لكنها كلها محاولات لم تُسفر عن شيء أمام أعلانات تتحدث عن شرط خبرة لا يقل عن عشر سنوات ، من أين ستأتي الخبرة ونحن نحتاج إلى الواسطة منذُ البدايات ، لذلك كان وسام دائماً حزين متجهم لأنه لا يستطيع أن يحصل على أبسط حقوقه ، وظيفة تليق بشهادته ، أنهى بحث اليوم دون أن يحصل علي أي نتيجة كعادته ، ذهب إلى الفراش ، ألقى بجسدِه في إعياء شديد ، تأوى بشدة من ذلك الآلم الذي استَوْطَن جسده منذُ أن ساءت حالته النفسية ، تكوم على نفسِه في وضع الجنين ، أغمض عيناه وترك نفسه يهوى إلى غياهب النوم العميق .

لم تمر سوى ساعة واحدة قبل أن تتناول أذنه طرق هستيري على باب الشقة ، خبط مستمر بلا هوادة ، صوت الجرس لم يكف عن الصِراخ وكأن من يضغط على الكابس لا يريد أن يرفع يده حتى الهلاك ، في البداية ظن ذلك النحيف أنه كابوس يراوده في المنان كعادته بعد أي بحث فاشل يقوم به لكن هذة المرة يبدو أنه كابوس على أرض الواقع ، شيء حقيقي يتجسد بتوحش أمام الجميع ، حالة من الهلع الشديد تضرب جميع أركان البيت ، هرع والدُه ووالدتُه في اتجاه باب الشقة في الوقت الذي خرج هو فيه ليجد أخته الصغرى ترتدي منامة النوم وعلى وجهها المُصّفر يتجسد ما يحدث حولهم ، أنحنى ظهر والده وهو يستفسر من الطارق عن هويته من خلف باب الشقة الذي يهتز بقوة على أثر ذلك الطرق العنيف الواقع عليه لدرجة أن مزلاقه كاد أن ينفسخ ويخرج من مكانِه ، أتاه صوت خشن ، أجش ، لا مكان للمزاح بين ثناياه ، أتاه ذلك الصوت أمِراً إياه بفتح الباب وإلا سيقوم ومن معه بتهشيمه وتكسيره وجعله حُطاما ، بمجرد أن حرك والد وسام المقبض وجدوه مُلقى على ظهره يفترش الأرض ، أندفع كل من بالخارج كالسيل المنهمر مما أدى إلى اتساع فرجة الباب وسقوط والد وسام على الأرض .

مجموعة من الرجال الأشداء أصحاب البنية القوية يتقدمهم شاب رفيع يبدو أنه قائدهم ، بعيناه الجامدة نظر إلى وسام الذي كان يقف مكتوم على أخته الصغرة التي كانت ترتعش من الخوف ، سأله بصوتٍ زاعق .

- أنت وسام محمود أحمد النقراشي .

أماء وسام برأسِه في خوفٍ شديد ، هو لا يفهم شيئاً لكن سؤاله عن الأسم رباعي يؤكد أن هؤلاء لم يأتوا إلى هنا عن طريق الخطأ وأنما هم الآن يقفوا في البقعة الصحيحة من الأرض ليؤدوا عملهم على أكمل وجه ، أمر ذلك الشاب الرفيع كل من معه بتفتيش الشقة وهو يوزع نظرات الغيظ والحَنَق على وسام وأسرته .

انبث كل الرجال الذين جاءوا معه في جميع أرجاء الشقة ، يقلبونها رأساً على عقب خاصتاً غرفة وسام ، حاول والده الأقتراب من ذلك الشاب الرفيع الذي تأكد الجميع من أنه ضابط في المباحث العامة .

- هو في إيه يابني ؟؟

سدد له نظرة قاسية بطرف عيناه قبل أن يُجيبه بنبرة لاذعه .

- في أن البلد لازم تنظف من اللي زي أبنك ده علشان الناس المحترمة تعرف تعيش .

سدد إليه النَّظَر ، أدامَهُ بشكل مبالغ فيه وكأنه يحاول أن يستفسر منه عن فعلته التي جلبت رجال المباحث إلى شقتهم للمرة الأولى في حياتهم ، صِغر المسافة بين البنايات وبعضها

سمح للجيران بالأستماع إلى تلك الضوضاء والحركة الغير طبيعية مما دفعهم للمجيء والتجمع أمام باب شقتنا ، ينظرون بعيون تخرّ منها الدهشة أمام باب شقتنا ، ينظرون لكن بمجرد أن ينتهي رجال المباحث من التفتيش ستشرق شمس الحقيقة التي تتوارى خلف سُحب الغموض ، خرج الرجال الأشداء من الداخل بعدما حولوا الشقة بالكامل إلى رُكام يتراكم فيه العفش فوق بعضه ، تحدث شخص منهم إلى الظابط النحيف بنبرة صوت يملاءها الأحترام الشديد ، يُخبره بأنهم لم يجدوا شيئاً على الأطلاق ، سدد الظابط نظرة صارمة ، شرسة قبل أن يأمر الجميع بإحضار وسام عربة الشرطة ، بمجرد أن أنهى كلامه وولى ظهره إليهم وجد وسام يد شخص عملاق تقبض على ملابسِه وتجره على الأرض ، أخته الصغيرة تصرخ وتبكي وكذلك أمه لكن لم يستمع أحد إلى صِراخهم ، حاول وسام التشبث بالأرض لكن قوة الرجل الضخم جعلته يسير رغماً عنه ، تمزقت ملابسه على أثر ما يحدث ، حاولت والدته منع ما يحدث لكن تدخل الجيران وحاولوا تهدئتها حتى لا ينالها أي أذى جراء تلك الأفعال ، أنْزَلوا وسام درجات السلالم جراً كأضحية العيد المقتادة إلى ساحة الذبح ، أدخلوه سيارة الشرطة وسط كل أهالي الشارع المتجمعين أسفل البناية ، نَزَل والده إلى الشارع بسرعة فائقة ، أقترب من سيارة الشرطة ، تحدث بلهفة مع الظابط النحيف الذي يرتدي زي مدني عادي ، سأله هل يذهب معهم إلى القسم ، أجابه الظابط بإستياء شديد دون حتى أن ينظر إليه .

- أبنك هيتحجز كام ساعة وبعدين هيترحل للنيابة أبقى رحلوا هناك .
- طب هو عمل إيه يا باشا ، إيه جريمته ؟؟
- جريمته أنه ناقص تربية .

أنهى كلامه ثم أمر السائق بأن يتحرك فأنطلقت السيارة في طريقها للقسم .

مع تباشير الفجر الرمادية كانت سيارة الشرطة تقطع شوارع القاهرة النائمة بسرعة فائقة ، جميع شوارع العاصمة التي مررنا بها ساكنة لا يوجد سوى شارع باب البحر الذي استيقظ بأكملِه بسبب ما حدث ، وسام يجلس في الصندوق الخلفي من السيارة ، مبنى القسم بدأ يقترب منهم فقد لمَحَهُ وسام من ذلك الشباك الصغير الموجود على جانبي الصندوق ، توقفت السيارة ، هبط الجميع قبل أن يُنزل ذلك العملاق وسام من ملابسه ، أقتاده على تلك الكيفية التي كان يقتاده بها في منزله حتى عبر بوابة القسم مروراً بذلك الكونتر الرخامي الموجود بجوار الباب مباشرةً ، خلفه يجلس أثنان أمين شرطة وظابط بالزي الرسمي ، حدق به الظابط قبل أن يسأل العملاق الذي يقتاده .

- هو ده الواد بتاع موضوع بنت اللواء .
- آه يا باشا هو ، عامل فيها ناصح .

أنهى كلامه بقلم على قفاه كاد أن يُسقطه على وجهه لولا أنه يمسكه بقوة من ملابسِه ، علق الظابط .

- أضربه تاني خليه يتربى .
- والله يا باشا أنا لوالموضوع بإيدي كنت أخدته هو وكل اللي زيه وحطيتهم في زنزانة ودلقت عليهم جاز وولعت فيهم .
- وليه كل ده ، أنت نزله الزنزانة ووصي عليه الأخضر .
- تعالى يلا .

قالها ظابط المباحث النحيف فهرول إليه وسام .

- شايف الحيطة دي .

أشار إلى حائط مجاور لباب مكتبه .

- آه .
- تقف عندها أنتباه لحد ما أخلص حاجة وأندهلك ، على الله تتحرك فاهم ولا لا .
- فاهم يا فندم بس ممكن أعرف لي....

قاطعه بحده .

- ششششش ، مش عاوز أسمع صوتك يلا .

تركه وانصرف ، ساءت حالة وسام النفسية واِغْتَمَّ بسبب ما يحدث له ، أكثر ما كان يُشعره بالكمد أنه لا يفهم ماذا أقترف ليُعامل بمثل هذه المعاملة القاسية التي ليس بها ذرة إحترام واحدة له ، تَأخّر الضابط النحيف مما دفع وسام للجلوس بوضعية القرفصاء لأن قدمه بدأت تئن من الآلم علاوة على أنه لم يتذوق طعم النوم ، بعد عدة دقائق ظهر ذلك الظابط ومعه رجل من أمناء الشرطة أمرُه الظابط بكل صرامة أن يقتاد وسام إلى الحجز ليلعب معُه الأخضر قليلاً حتى يأتي رئيس المباحث تمهيداً لعرضِه على النيابة العامة بعد ساعات فأسم ذلك الشقي التعس بدأ يتردد أكثر من أي أسم أخر داخل الوزارة ، بطريقة مُهينة لم يعتاد عليها وسام أقتاده ذلك الأمين من ملابسه حتى وصل به إلى باب حديد لونه قاتم ، مُزود بكوة مُغطاه بقوائم حديدية صغيرة فقط من أجل التهوية والتنفس ، أولَجَ المفتاح في الباب فأصدر صريراً كئيباً أثناء فتحِه وكأنه يُنذره بتلك الأهوال التي سيجدها خلفه ، جال وسام بعيناه في وجوهٍ رثة تتعرف من خلالها على تاريخها المليء بالأجرام ، وجوه مرعبه تحمل قدراً هائلاً من الشر ، دفعه الأمين بقوة أدت إلى أختلال توازنه فوجد نفسه مُلقى علىالأرض ، وَلَّجَهُ الأمين إلى بني الأجرام وأنصرف ، رفع وسام رأسه ببطء ، يستكشف المكان من حولِه فوجدهم يتطلعون فيه بإمعان ونظرات خبيثة مصحوبة بأبتسامة خفيفة ولمعة غريبة في العين وكأنه فتاة خليعة سقطت بينهم ، تبرع أحدهم بالتعليق الأول المصحوب بسخرية عارمة .

- نورتي الحجز يا بطة .

ضحك الجميع تلك الضحكات التي تتبع أي تعليق ساخر في جلسات المزاج والكيف ، أذكى أحدهم ضحكته بهزت رأس عجيبة لا داعي لها ، أنزوى وسام في صمتٍ رهيب ، قبع في زاوية بعيدة مثل كومة من أوراق الشجر الجاف ، وضع يدُه على أنفه ليحد من رائحة البول العطن التي تفعم المكان ، سكون ثقيل لا يخلو من نظراتهم الخبيثة تجاهه وكأنهم مجموعة من الجياع ينظرون تجاه طناً من اللحم المشوي الطازج ، شق ذلك السكون صوت زاعق يأتي من أخر الزنزانة .

- تعالى هنا يلا .

نظر لمصدر ذلك الصوت الزاعق ، أنه شاب نحيف تبدو عليه أمارات الإجرام والبلطجة ، جلد مُعجن ومشوه يتكون من أهداب تغلق مَحْجر عينه اليمنى التي فقدها في أحدى المشاجرات الطاحنة ، مظهرها المقزز ينُمُ عن التهام حمض الكبرتيك لها ، يرتدي بنطال " ترنج " وتي شرت رياضي لأحد الأندية العالمية ، يستند برأسه على الحائط ويتحدث إلى وسام وهو يولي وجهه تجاه السقف كنوع من أنواع العظمة لتعويض ذلك النقص الذي يشعر به دوماً ، حول وجهه سحابة كثيفة من الدخان المتصاعد من السجارة التي يُدخنها بشراهه ، تجمد وسام مكانه وهو ينظر له في خيفة ورهبة عارمة ، بالتأكيد هو يثق تماماً أنه يتحدث إلى مجرم خطير فلن يتسلل إلى ذهنِه أنه شرطي مُتنكر زَرَعهُ سيادة اللواء ليتأكد من أن وسام متورط فيما حدث أم هناك شخص أخر قد زجَّ به ، فهذه الأفكار أنتهت تماماً في الثمنينات مع ظهور " فايزة كمال " بزي شرطة وهي تُردد بكل ثقة " أنا الملازم أول فوزية فهمي من شرطة مكافحة المخدرات " في المشهد الأخير من فيلم " بنات حارتنا " .

نهض ذلك البلطجي وأتجه ناحية وسام الذي بدأ يتوتر فمهما أتسع خياله لن يتوقع ماذا سيفعل به ذلك البلطجي الشرس الذي بدأ يقترب منه ، جلس أمامه القرفصاء ، نفخ دخان سجارته في وجهه بكثافة ، أرتفع منسوب التوتر لدى وسام فقد صار للخطر طول وعرض وأرتفاع ، صار شيئاً مادياً أمامه ، تحدث معه ذلك البلطجي الأهوج في صرامة شديدة .

- هو أنا مش قلتلك تعالى .

نظر له وسام طويلاً دون كلام فصفعه على وجهه بقوة أطاحت برأسه في إتجاه الصفعة ، اتسعت عيناه قبل أن تمتليء بالدموع في حين أن ذلك البلطجي ذو الهيئة الرثة مدَّ يدُه وأخرج هاتف وسام الخلوي عنوّة ، دون أي مقاومة .

- الموبيل ده هيتاخد أدباً ليك علشان مردتش عليا ، تاني حاجة بما أنك حلو كدة وواخد جنب مش عاوزك تسيب الركنة اللي أنت زنقت نفسك فيها دي ، حتى الحمام تعمله

مكانك وأنت قاعد كدة ، لو لمحتك أتحركت هخليهم يقلعوك ملط ويلعبوا على ظهرك كلمات متقاطعة ، ماشي يا عم الأمور .

أومأ وسام برأسه والدموع حبيسة عيناه التي أتسعت عن أخرها من هول ما هو فيه فبات أشبه بطفل صغير يشاهد أمه وهي تتركه في أول يوم دراسي لـهُ وتنصرف بعدما سلمته لأحد المسئولات ، ظل وسام ثابت على هذه الوضعية وكأنه تمثال من رخام ، لا يتحرك ولا يتكلم فقط يعطي كل المجال إلى عقلِه الباطن ليلفظ كل ما في باطنِه من أفكار وأحداث تقع في نطاق خيالِه الفقير ، أقترب منه شاب نحيف ، يُزين وجهه علامة قديمة صنعها سلاح أبيض بلا رحمة ، ينتمي إلى تلك الفئة التي لا تُحاورك إلا واستمعت منها إلى جملة " عاوزك في مصلحة " ، أقترب منه حتى كاد أن يلتصق به ، يُحاول أن يسلك معه مَسلك الحِذْق لأنه كعادته يريد أن يبلغ مأربه من أي شخص يتحدث معه ، يَتَمَسَّح فيه كما تتمسح القطط المدللة بأصحابها ، بنبرة صوت توشي بنواياه الخبيثة .

- جرى إيه يا نجم ، قاعد كدة ساكت يعني ، مش عاوز تطمن أهلك عليك ولا إيه ؟؟

رمقه وسام بوجه خالي تماماً من التعابير فهو يتعامل مع أُناس لا قِبل له بهم ، أردف ذلك النحيل .

- أنا عارف أن الأخضر ده مفتري ، منه لله مقلب الحجز كله أصلُه مسنود من كبار القسم ، بس ولا يهمك ، سيبك منه خالص .

وسام ينظر له بثبات دون حِراك ، الآن أدرك من هو الأخضر الذي تحدث عنه حضرة الظابط !!! وقعت عيناه تجاه شاب يمسك في يديه شفرة حادة ويقوم بعمل جروح سطحية على ذراعِه ، نظر ذلك النحيف تجاه ما ينظر إليه وسام .

- آه ، متقلقش دا بيزعل نفسه .

نظر لهُ وسام بعدم فهم وخيفة لا ريب فيها .

- واخد أبتريل ، والأبتريل حبيب الدم ، فلازم يقعد يقطع في أيده كدة ، عالم شمامة سيبك منهم ، المهم قولي بقى أبوك زيرو كام علشان تطمنه عليك .

أخذ وضعية من سيشرع بإخراج هاتفه الجوال .

- يعني بجد ممكن تديني أكلم من تليفونك .
- طبعاً يا جدع ، هو في إيه ، دا الناس لبعضيها حتى .

دسَّ يدُه داخل ملابسه الشبه ممزقة التي يرتديها ، أخرج منها هاتفه الخلوي الذي يعود إلى القرون الأولى ، ينتمي إلى تلك الفئة التي كانت أهم مميزاتها لعبة الثعبان ، أعطاه إلى وسام وهو يبتسم بخبث شديد لا حد له ، أخذ وسام الهاتف ثم أجرى أتصالاً هاتفياً بوالده ليُخبرُه أنه سيعرض على النيابة بعد ساعات من الآن وأنه لا يفهم ماذا يحدث ولكنه متأكد أن هناك ثمة أمر خطأ قد حدث ، أخبرُه والده أنه يجلس الآن مع محام يشرح له الوضع حتى يتمكن من مساعدتِه ، أغلق الهاتف ثم شكر ذلك الشهم مُردداً بداخلُه مقولات شهيرة تنُمُ على أنَّ " الدنيا لسه بخير " ، فوجئ بذلك الشاب النحيف ذو الملابس الممزقة وهو يُطالبه بخمسين جنيهاً !!!!

- كاااااام !!!
- بقولك عاوز خمسين جنية ، إيه أطرشت دلوقتي .

قالها ذلك النحيف بصرامة بعدما أعوجت شفتاه على احدى جانبي فمه ، أين ذهبت تلك المعاملة الحسنة !!!

- أنا عنية ليك ، بس ليه الأسلوب ده ، دا أنت حتى راجل محترم .
- لا يا حبيبي لا عنيك ولا رجليك دا حقي ، أنت أتكلمت دقتين ونص والدقيقة بعشرين جنية يعني الحساب كله خمسين جنية .

تخشَّبَ وسام مكانه ما كان أن يتوقع هذه الأحداث التي دنَّست بلا شك ذلك الأحساس النفسي المريح الذي بدأ يعتريه وسام منذُ دقائق .

- أنت نمت ولا إيه ، هات الفلوس يا جدع دا حق ناس .
- أنا كنت بحسب أنك هتخليني أكلم كدة .
- ليه إن شاء الله ، شايفني فاتح كشك خدمة أجتماعية .
- لا ، بس قلت أنك بتعمل معايا الواجب .
- الواجب ده أعمله معاك وأنت قاعد ضيف في صالة الشقة بتاعتي ، مش وأنت قاعد في حجز ، هات الفلوس ياض لشقق .

قام عنه وقد تقوَّس كتفاه فصارت له هيئة المجرمين المحترفين ، رفعه بقوة وغيظ من ملابسه وصرخ فيه بغضب شديد يملأ جوانحه .

- هتجيب الفلوس ولا أشكيك للأخضر .

أتاهم صوته الأجش من بعيد وكأنه أنتبه بمجرد أن سَمِعَ أسمه .

- فيه إيه يا جلاكسي ، بتزعق ليه ؟؟

همس بصوتٍ خافت .

- ها هتجيب الفلوس ولا أخليه يقلعك هدومك .

دسَّ يدُه في جيبه وأخرج ورقة من فئة المئة جنية كانت بالصدفة داخل جيب البنطال الذي كان يرتديه أعطاها له ويدُه ترتعش ، نزعها منه بعنفٍ زائد .

- هات ، وعقاباً ليك مفيش باقي علشان طولت معايا .

دفعه بقوة فأسقطه أرضاً .

ظل وسام حبيس تلك الزاوية حتى فُتِحَ الباب ودخل أمين شرطة ممتقع الوجه ، أخبر وسام بلهجة أمِره أن يأتي ، وضع الأصفاد في يديه وسحبه بقوة تجاه مصيراً لا يعلمه .

وصل به إلى مكتب رئيس المباحث ، أجلسُه على دكة خشبية صغيرة قريبة من باب المكتب ، جلس الأمين بجوارِه يتصفح صفحات النت على هاتفِه المحمول ، بصوتٍ هادىء حاول وسام أن يخبر الأمين بما حدث في الحجز لعله يأتيه بالهاتف وتلك النقود التي دفعها ثمن مكالمة لم تتعدى الثلاثة دقائق لكن لم يجد منه رد أو أهتمام ، لا شيء على الأطلاق وكأنه لا يسمع ما يقول ، ابتلع وسام ذلك الأحراج ولم يتكلم .

أقتحم المكان رجل عريض المنكبين ، يرتدي بذلة ذات مظهر مُهيب ونظارة شمسية تبدو قيمة تعطي له هيبة ووكار شديد ، يتحرك داخل القسم وكأنه على دراية بمداخله ومخارجه ، يتجه إلى مكتب المأمور دون أن يُعير أهتمام إلى أي شخص في طريقه ، فقط يتلقى التحيات الرسمية وكلمات مثل " نورت يا باشا " من كل شخص يقع في طريقه مهما كانت رتبتُه ، فقط يكتفي هو بهز رأسه في ثقة كبيرة ، أقترب منا فاستقام الأمين وأعطى له التحية العسكرية بكل وقار وأحترام ، دخل إلى مكتب رئيس المباحث الذي استقبلُه بحفاوة كبيرة ، بعدها بربع ساعة تقريباً تم استدعاء وسام ، دخل إلى المكتب وهو غارقاً في أبار القلق والتوترة الشديد ، أشار رئيس المباحث تجاهه وكأنه مجرم يقف خلف القفص الحديدي .

- هو ده بقى الواد يا باشا .

نظر إليه ذلك الرجل الذي يتمتع بكل هذه الهيبة بعدما نزع عن وجهه نظارته فصارت هيئته كالضَّبْع حين لا يجد طعاماً ، حانت من وسام نظره تجاه مكتب رئيس المباحث فوجد هاتف خلوي ذو شاشة كبيرة وماركة عالمية شهد لها الجميع بالتفوق ، هو يعرف ذلك

الهاتف جيداً ، نعم أنه هاتف أخت صديقه بندق الذي باعهُ لها منذ أيام ، مدَّ ذلك الرجل ذو الهيبة يدُه والتقط الهاتف ثم مرروه أمام عين وسام قبل إن يتحدث إليه جازعاً .

- أنت جبت منين التليفون ده يا ....

جمدتُه تلك الأهانات المتتالية التي بدأ بها الحوار والتي استشف منها أنه صار بينهم مُتهم !!! ثواني قليلة مرت حتى وجد من يرج رأسه بأصابع قابضة على شعره المنكوش .

- رد يا حرامي يا .... على الباشا .

تركه وكأنه يعطيه فرصة أخيره قبل أن تتفاقم الأمور أكثر من ذلك .

- يا باشا أنا مش حرامي .

أعاد كلماته مرة أخرى ولكن بلهجة بدت أكثر عنفاً .

- جبت منين التليفون ده يا ......
- يا باشا التليفون ده بتاع أخت واحد صاحبي وأنا بعتُه لواحد من كام يوم .
- آه شكلك مقرف وهتتعبني معاك .

هذه هي المرة الأولى التي يتلقى فيها وسام صفعة على قفاه أطاحت به وأحدثت شرخاً عميقاً في نفسِه سيحتاج حتماً إلى وقتٍ طويل ليتداوى ، تحدث معه رئيس المباحث بقوة وغلاظة لم يعتاد هو عليها .

- أسمع يلا ، هتيجي معانا عدل هنساعدك ، هتلف وتدور هعلقك من رجلك أنت سامع ولا لا .
- ما أنا جي عدل أهو يا باشا .

همس بصبر بدأ ينفذ .

- وبعدين بقى .

مدَّ يدُه في الدرج وأخرج وثيقة مكتوبة بخط اليد .

- المُبايعة دي مش أنت اللي كتبتها بخط أيدك ، ده مش أسمك ورقم بطاقتك .
- ممن أشوفها يا باشا .
- أتفضل يا خويا .

مد يده ووجهه ممتعض ، أخذها وسام وبدأ يتطلع بها ، قرأ ما كُتِب فيها ، نعم أنها تلك المبايعة التي طلب منه أن يكتوبها ذلك الشاب القصير الممتليء الذي جاء إليه بغرض شراء الهاتف .

- يا باشا أنا كتبت المبايعة دي فعلاً بناء على رغبة اللي جه اشتراه مني أنما هو في الأصل بتاع أخت صاحبي .
- باشا هو التليفون ده في مشكلة .
- التليفون في مشكلة ، لا أبداً مفيش أي مشكلة ، هو بس أتسرق من بنت سيادة اللواء ، فاهم يعني إيه اتسرق من بنت سيادة اللواء ، مش كدة وبس لا ، أنت بقى ولا شريكك اللي سرقوا ساب جرح عميق لبنت اللواء .

***

أمام بوابة أحدى الأندية الكبرى بالقاهرة ، حركة لا تتوقف أبداً ، أُناس في حالة حركة مستمرة ، منهم من يذهب ومنهم من يأتي ومنهم من يبحث عن مكان لسيارته أخر حريص على الحفاظ على أطفالِه وسط الزحام ، وسط تلك الغوغاء تقف فتاة شقراء بملامح جذابة ، ترتدي ملابس رياضية ، تضع الهاتف الذي كان بحوزة رئيس المباحث على أُذنها ، تتحدث إلى صديقتها وتوبخها على تأخيرها الدائم مُهدده إياها بالأنصراف إن لم تأتي سريعاً ، بالقرب من باب النادي هناك دراجة بخارية يقودها شخص مُلثم ، خلفه يجلس مُلثم أخر يتشبث به من الخلف ، يخبرُه هامساً في أُذُنِه بأن يتحرك ، يعتصر بيده ذلك الخانق الذي يعلو على أثره حشرجة الموتور ، ينطلق بالدراجة البخارية ، يقترب من أبنة اللواء قدر المستطاع ، يمد المُلثم الأخر يده لينتزع الهاتف ، شعرت به هي فحاولت منعه لتجد نفسها تتدحرج على الأرض قبل أن يصنع جسدها حركة بهلوانية في الهواء أدت إلى جروح سطحية وظهور بعض الدماء في أماكن متفرقة من جسدها ، اخذ المُلثم الهاتف وأنطلق سريعاً وسط نظرات الماره .

***

تقدم سيادة اللواء ببلاغ رسمي وتم وضع الهاتف تحت المراقبة من الرقم السري المدقوق على الكرتونة حتى تم ظبطه ، من أسبوع في شارع قريب لباب البحر ، تحركت قوة من القسم وتم ظبط شاب قصير ممتليء كان يجلس على القهوة هناك وبسؤاله أخبرنا أنه أبتاع هذا الهاتف منك ومعه الدليل ، تلك المبايعه التي كتبتها أنت بخط يدك .

***

وسام يقف أمام رئيس المباحث في حالة يرثى لها ، تتناول أذنه ذلك الكلام الغريب ، يحاول أن يربط كل الأحداث لتتشابك وتتشكل الحقيقة أمامه ، رئيس المباحث ينظر له ويدقق النظر في ملامحه محاولاً أن يستشف الحقيقة .

- جرى إيه يلا ، بتألف حدوتة ولا إيه ؟؟
- لا يا باشا مش بألف ولا حاجة والله بس كدة الموضوع في حلقة مفقودة .
- حلقة إيه يا روح أهلك ، أنت هتحور يلا .
- باشا أنا عاوز أحكيلك اللي حصل بما يرضي الله .

نظر رئيس المباحث إلى اللواء فأماء له برأسِه .

- أحكي ، بس في الأنجاز الباشا معندوش وقت .

***

متجر صغير لا تتعدى مساحته الـ ٣متر * ٢ متر ، عُلقت عليه لافته ضوئية طُبع عليها بالخط الأبيض الواضح " Missed Call " لخدمات المحمول ، أضاف بجوارها بخطٍ أصغر بقليل كلمة " موزع معتمد " لما تتمتع به تلك الجملة من مفعول سحر يجذب الكثير من الزبائن وكأن بها قوة مغناطسية قوية ، المَتجر يمتلك واجهة شفافة من الزجاج بداخلها عُرضت بعض الهواتف الجديدة وأخرى مستخدمة للبيع بأسعار تتناسب مع كل من يريد أن يمتلك هاتفاً ذكياً ، وسام يجلس أمام مَتجرُه على كرسي خشبي أراح ظهره إلى الحائط في وضعيه مائلة أدت إلى أرتفاع أقدامه الأمامية عن الأرض ، يصب كل تركيزه في تلك اللعبة التي على هاتفه ، وقع أقدام تقترب من الباب ، رفع عينه ببطء أنه بندق صديق المدرسة في فترة الطفولة ، لم يعرفه في البداية لكن مع مرور الدقائق تأكد أنه هو ، أنتصب واقفاً وراح يبادله الأحضان والتحيات الحارة ، يسأله عن أحواله وعن كل شيء بعدما نعته بكلمات غير مهذبه على سبيل المزاح .

- يخربيتك يا بندق ، أنا مشفتكش من بعد أعدادي ياض .
- واحشني جداً يا وسام والله .
- إيه أنت قاعد فين دلوقتي .
- لا مش هنا خالص أنا بس كنت في مشوار قريب وبعدين قلت أروح شارع عبد العزيز علشان أبيع الموبيل بتاع أختي فواحد واصف لي طريق مختصر من هنا بس أنا حظي حلو علشان أشوفك والله .
- أنا حظي حلو والله .
- والله دا أنا اللي حظي حلو .
- إيه موضوع التليفون اللي أنت عاوز تبيعه ده .
- البت أختي جابت موبيل وكانت عاوزة تبيعه .
- ورهولي كدة .

- أهو .

أخرج هاتف خلوي كان يدسه في جيبه ، أنه هاتف خلوي حديث لم يمر سوى شهر واحد على صدوره ، أعطاه إلى وسام .

- ياراجل ، التليفون ده لسه جديد .
- آه ما أنا عارف ، ما هي لسه جيباه بس محتاج فلوس بقى .

وسام يقلبه بين يديه وهو يستفسر منه عن ثمنه فأجابه بندق .

- يااه ، أختك مش عاوزة تخسر فيه حاجة خالص ، دا تقريباً نفس تمنه جديد .
- بص أعرضه على السعر ده جاب يبقي تمام ، مجبش هرجعه تاني ليها وهي حره .
- هو الصراحة أنا موعدكش يتباع ، سعره عالي أوي ، والزباين عندي هنا مش للدرجة دي ، بس أنا هعمل معاك واجب والله مش بعمله مع حد .
- واجب إيه ؟؟
- بص يا سيدي ، عادتاً لما بيجي أي تليفون من ده لينا بنعمل الأتي ، بنضيف مبلغ صغير على سعره مكسب لينا غير النسبة اللي باخدها من صاحب الموبيل نفسه ، أنا بقي مش هعمل كدة أولاً علشان الموبيل سعره عالي أصلا ثانياً علشانك أنت .
- حبيبي يا وسام والله .
- أديني بقى رقمك علشان لما يتباع أعرفك .

أعطاه رقم هاتفه ثم أخبره قبل أن ينصرف أن شاحن ذلك الهاتف فُقِد لذلك من الأفضل أن يضعه دون تشغيل .

***

بعد مرور أسبوع .

يمر من أمام المتجر شاب قصير القامة ، يرتدي عوينات سميكة ، يمتلك جسد يشي بضعف عمل غُدده الصماء المسئولة عن حرق السعرات الحرارية ، يرتدي ملابس قيمة تتناسب مع جسده الممتليء ، ملابس تضعه تحت مظلة كلمة " ابن ناس " ، وقف أمام الفترينة يتجول بعيناه بين الهواتف المعروضة للبيع ، نظر وسام تجاهه بنظرة خاطفة قبل أن يعاود متابعة ما يفعل ، أشار ذلك القصير تجاه جهاز لوحي معروض مستفسراً عن سعره فأخبره وسام باقتضاب فتجهم ذلك القصير وكأنه كان يتوقع سعر أقل من ذلك ، بخطوات بطيئة جداً أنتقل إلى الفترينة الأخرى التي تضم الهواتف المستخدمة قبل ذلك ، أشار تجاه هاتف أخت صديقه بندق مستفسراً عن ثمنه فأجابه وسام عن الثمن دون أهتمام هذه المرة فربما لأنه صَنَفُه من ضمن هؤلاء اللذين يستفسرون عن سعر الأشياء ثم ينصرفون دون

شراء ، فقط بعضهم يُردد " شكراً تعبتك معايا وأخرون يكتفون بأن يولوا ظهورهم له ثم يتبخترون وهم ينقشعون بعيداً لكن فوجيء وسام بذلك الشاب الممتليء الذي تناثر على جبهته حبات العرق من أثر الرطوبة يطلب شراء ذلك الهاتف .

- دا مستعمل على فكرة ومن غير شاحن ها .

قالها وسام بأهتمام .

- مش مهم الموبيل لسه جديد وسعره حلو أوي .

أنعقد حاجبه عجباً .

- ممكن أجربه لو سمحت ؟؟
- طبعاً .

أعطى له وسام الهاتف بعدما ضغط على زر التشغيل ليوقظه من نوم عميق دام لوقتٍ طويل ، يُقلبه ذلك البدين بين يديه ، وسام ينظر لهُ في ترقب شديد خشيتاً من أن يهرع به ، لا تجعل مظهره الأنيق يخدعك فجميع السارقين والنصابين يعتنون بهيئتهم وملابسهم ، ظل يتفقدُه ويُداعب شاشته " التاتش " بأصابعه الغليظة حتى تأكد تماماً أنه في حالة جيدة ، دفع له المبلغ المطلوب ولكن قبل أن ينصرف طالبُه بوثيقة تثبت بأنه ابتاع الهاتف من ذلك المَتجر " مُبايعة " ، أرتسمت على وجهه أمارات عدم الفهم فهذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها لأمر مثل ذلك ، لكنه وافق في النهاية مع أصرار ذلك القصير ، أعطاه وثيقة " مُبايعة " مُسجل بها رقم بطاقته الشخصية وأسمه وتوقيعه ، ومنقوش فيها أيضاً أن ذلك البدين ابتاع منه الهاتف اليوم في تمام الساعة .... بتاريخ .... ، أخذ الوثيقة والهاتف ثم انصرف .

أجرى وسام أتصالاً هاتفياً بصديقه بندق في غسق نهار ذلك اليوم نفسه بنبرات صوت تمكنت منها السعادة البالغة ، تمكن من بيع ذلك الهاتف الخلوي الذي يخص شقيقته ، لذلك وسام كان حريصاً على ألا يضيع تلك الفرصة الذهبية فوافق على إعطائه تلك الوثيقة التي طلبها منه ذلك المُغفل القصير ممتليء الجسد ، بندق أبدا سعادته البالغة ثم أثنى ثنائاً حسناً على وسام واصفاً إياه بالداهيه التسويقية المحترفة الجديدة ، فكان بندق لا يتوقع أن يُباع الهاتف بذلك المبلغ أبداً ، أخبرُه أيضاً أنه سيأتي إلى مَتجره في أقرب فرصة تسمح له بالذهاب إلى هناك ليأخذ المبلغ الذي يخص شقيقته بعد خصم مكسب وسام .

في اليوم التالي بعدما أذنت الشمس بالمغيب ظهر بندق أمام مَتجر وسام مبتسماً راسماً على وجهه أخاديد السعادة البارزة ، هللا وصفَقَ في سعادة بالغة وهو يثني على وسام كهؤلاء القوم اللذين يقدمون المرشحين للأنتخابات في سراديق التعارف والألتحام بالناس .

- أقسم بالله العظيم أنت برنس .

قالها بندق في نفاق مبين .

- يا عم على إيه بس .
- هو إيه اللي على إيه ، الواحد كان بيقول عمرُه ما هيتباع بالسعر ده ، دا أنت أسطورة .
- يا عم لا أسطورة ولا حاجة دا رزق أختك .
- آه والله دي فرحت أووي لما قلتلها الموبيل اتباع ، إن شاء الله هجبها تاخد منك موبيل جديد .
- المحل بتاعك يا بندق في أي وقت .
- وهجبلك كام موبيل تاني تبعهم والمكسب كبير وحلو برضو .

أخذ يغمز له بعيناه وكأنه يقول لهُ من أين لك كل هذا ، أخذ منه المبلغ المتفق عليه وجزءاً من المكسب وهو يُردد بصوت لم يخلو من الكذب المبالغ فيه أنه سيعود إليه ليجلسوا سوياً دون وجود أي مصالح مشتركة ، فقط جلسة أصدقاء يود كل منها أن يشبع من الأخر .

***

وسام يستكمل حديثه مع رئيس المباحث واللواء ذو الهيبة ، رئيس المباحث ينظر له بسخرية ، من الممكن أنه لا يصدق ما يقول لكن لأبد أن يصدق هكذا كان يُطمئن نفسه وسام حتى لا يجن ، نظر له في تحدٍ وقال من بين أسنانه .

- المفروض بقى أننا نصدق القصة الهبلة دي صح .

أربك وسام ذلك الرد الصادم .

- والله هو ده اللي حصل والله .

تعالى فحيح سيادة اللواء قبل أن يهب واقفاً ، يهرع تجاه وسام ، يقبض عليه من ملابسه ، يجذبه تجاهه .

- أنا عاوز الواد بتاع الموتوسكل يا أمَّا هعتبر أنت اللي سرقت ، سامع ولا لا .
- أهدأ يا باشا أنا هعرف أخليه يكلم ، أهدا أنت بس .

ذلك كان رئيس المباحث يتحدث إلى سيادة اللواء الذي ترك ملابس وسام شيئاً فشيء .

- باشا ممكن أكلم في التليفون ؟؟

- هتكلم مين يلا ؟؟
- هكلم بندق صاحب التليفون .

أشاح له الظابط بيداه أن يتحدث .

- طب يا باشا هما خدوا مني التليفون في الحجز ، واحد أسمه الأخضر خدوا مني .

رمق رئيس المباحث اللواء بعينه قبل أن يأمر أمين الشرطة أن يُحضر له هاتفه ، وسام يستدعى رقم بندق ، المكالمة الأولى أنتهت بلا رد أمَّا في المرة الثانية أته صوته .

- وسام صديقي أزيك .
- بندق أنت فين في مُصيبة .
- يا ساتر يارب . موصيبة إيه يا وسام ، حد عندك حصله حاجة ، أبوك كويس ؟؟
- يابني أسمع ، هو الموبيل بتاع أختك ده أنتم جيبينوا جديد ولا مستعمل ؟؟
- موبيل أختي ، أنت شفت موبيل أختي فين ؟؟
- يابني موبيل أختك اللي أنا بعتهولك .
- أنت بعت موبيل أختي أنا !!! لا طبعاً محصلش الكلام ده يا وسام .
- جرى إيه يا بندق مش وقت هزار يا أخي .

قالها وسام بعصبية وغضب قاتم .

- وأنا ههزر ليه أصلاً ، أنت بس تلاقي الأمر أخطلت عليك بيني وبين حد تاني .
- يا بندق موبيل أختك اللي ماركته ...... ، دا أنت لسه واخد فلوسه من يومين ، لما قلتلي أنت أسطورة وهبقى أجبلك موبيلات تانية علشان أبعها .

ببرود متناهي أجابه .

- أنا أختى عمرها ما جابت موبيل الماركة دي أصلاً ، ثم أن هي أساساً بقالها سنتين في السعودية من ساعت ما أجوزت ، يبقى أنت شفتها فين وبعتلها الموبيل بتعها أزاي وأمتى !! الكلام ده مش منطقي خالص يا وسام .
- يعني إيه بقى الكلام ده ؟؟؟
- يعني أكيد الأمر اخطلت بيني وبين حد تاني يا وسام .

صفعة قوية من الصمت لطمته ففقد النطق نهائياً .

- آلو ، وسام ، أنت سامعني ؟؟؟؟ وسام .

بصوت وهن تفعمه الصدمة الشديدة .

- يعني أفهم من كدة أن الموبيل ده فعلاً وراه حدوتة وأنت لبستني في الحيط .
- موبيل إيه وحدوتة إيه ، أنا بندق يا وسام ، بندق ها ، بعدين ألبسك في إيه أنا مش فاهم حاجة خالص بس كل اللي أقدر أقوله أن أنت أكيد بتكلم عن حاجة أنا معرفهاش ولا تخصني ، في حاجة غلط يا وسام ركز بس ، ركز .

لن يستطيع وسام النجاه من تلك الدومات التي وجد نفسه فيها وحيداً ، يكاد لا يستطيع الوقوف والاستمرار في المحادثة ، ظلت عيناه شَاخِصَة على نقطة وهمية ثابتة لا يصدق ما تتناوله أذناه من مفاجأت قاسية .

- معلش يا وسام مضطر أسيبك بقى عندي شغل كتير ، ربنا يوفقك ، آه أبقى طمني .

أغلق الهاتف فأتاه صوت رئيس المباحث الذي كان يتابعه بكل دقه .

- ها يلا ، لقيت حاجة ولا نرميك في الحجز لما يبنلك صحاب .
- بص يا باشا ، واضح كدة أني أضحك عليا واتنصب عليا كمان .

أبتسم بخبثٍ وكأنه بتلك الكلمات قد وصل إلى غايته ، قصَّ عليه وسام قصته كاملة ، كيف أعطاه بندق هذا الهاتف وأخبره أنه يخص شقيقته الوحيدة ، وكيف باعُه إلى أحد الزبائن المجهولين ، قصَّ له أيضاً وقاحة ذلك النذل الذي يدعى بندق ، فكانت إجابة المأمور.

- حلو أوي ياض الفيلم الهندي اللي أنت شغال فيه ده ، بس نهايته مش عجباني هغيرها بمعرفتي ، أصل لازم الحرامي يتقبض عليه في أخر الفيلم وأنت كدة قفلت الفيلم قفلة وحشة ، مش عجباني ، قفلته أنك أتنصب عليك وضحية وكدة .
- يا باشا أنا مش حرامي ، تلاتة بالله العظيم أنا ما حرامي ولا سرقت حاجة .
- أنت فعلاً ممكن متكنش الحرامي بس على الأقل أنت عارفه ، وأنتم الأتنين البلد لازم تنضف منكم .
- ياباشا أنت كدة ماسك الشخص الغلط ، والله أنا ما ليه دعوة بالموضوع ده .
- كلكم هتجيبوا بعض واحد ورا واحد بس هي مسألة وقت ، مجرد ما تلاقي نفسك هتتسجن هتتكلم .
- لا حول ولا قوة إلا بالله .
- أنت كمان مش عاجبك ، عارف يا روح أمك أنا ممكن أمسح أي أثر ليك ، ممكن أنزل تحت وأخليك تعترف على جرائم أنت أصلاً متعرفش عنها حاجة بس المشكلة أنك وقعت في إيد لواء محترم ، حظك ، عاوز الموضوع يمشي ميري ، رسمي ، أنا همشيه رسمي بس لو العدل منفعش .

شد أجزاء سلاحه الناري ليُصدر ذلك الصوت المعروف ثم أردف .

- لا يمكن أسمح أن حد في منطقتي يعلم على الداخلية .

أنتقل ببصره للأمين .

- أمين شكري عاوز محضر تمام التمام والواد ده يتحول على النيابة دلوقتي ياخد ٤ في ٤ في ١٥ لحد ما يبان لُه صاحب .

***

وصلوا إلى مبنى كبير تتجمع أمامه أعداد كبيرة من المنتظرين ، أنه مبنى النيابة العامة ، دخل وسام بعد تلك الأجراءات المُشددة إلى مكتب وكيل النيابة الذي أمرُه بصرامة أن يقص عليه حقيقة الأمر وإلا ألقى بنفسه في غياهب الظلُمات الذي لا ينتهي .

قصَّ عليه وسام ما حدث حرفياً وهو يستمع إليه بإمعان شديد وكأنه يريد أن يستشف ما وراء ذلك الكلام .

- القصة اللي حكتها دي وارد جداً أنها تحصل ، بس مفيش دليل عليها ، الدليل الوحيد المادي ضدك أنت ، المبايعة اللي أنت كاتبها بخط أيدك واللي صاحبها بمجرد ما فتح التليفون وحط الشريحة متعمد في المنطقة دي علشان يبقي في نفس دايرة القسم اللي أنت تابع له لقى الشرطة جيه تقبض عليه ، ضدك أنت وتحبسك .
- بس التليفون ده بندق هو اللي جابهولي .
- بندق ده اللي أنكر بعد كدة .
- آه يا باشا .

ضاقت عين وكيل النيابة قبل أن تلمع بذلك اللمعان الغريب وكأن هناك فكرة ولدت بعقلِه.

- هو أنكر اللي حصل علطول ، أول ما كلمته يعني ولا لما حاكتلُه اللي حصل .

تذكر وسام بشيء من العسر الحديث الذي دار بينهم في مكتب رئيس المباحث ، تذكر أنَّ بندق أنكر قبل معرفة أي شيء على الأطلاق .

- لا يا باشا أنكر من قبل ما أقوله أي حاجة .

أبتسامة ثقة خفيفة ظهرت على وجه وكيل النيابة تنُمُ على أنه قد وصل إلى حل لغز هام في تلك القضية .

- واضح جداً أن صاحبك كان عارف القصة من أولها وحب يشيلهالك أنت .
- يعني هو كان عارف أن الموبيل ده مسروق .
- هي دي أول مرة تكتب فيها مُبايعة ولا أنت متعود على كدة .
- لا دي أول مرة ، والزبون كمان هو اللي طلب .
- واضح أن صاحبك بندق كان حاسبها صح أوي لأن ببساطه الزبون ده تبعه .

أتسعت عين وسام وهو يحدق فيه دون كلام .

- صاحبك كان متورط في الموبيل ده ، ممكن كان جابه بعدين عرف حكايته فقال يلبسها لحد تاني ففكر فيك أنت ، جبهولك على أساس أنه موبيل أخته ، أتفق معاك على سعر هو عارف ومتأكد أنه يفوق ثمن الموبيل، بعدها بعتلك زبون عامل مغفل أول ما سمع السعر وافق عليه ، طبعاً الموبيل لو أتباع بالسعر ده مكسبك كبير وده الطُعم اللي رمهولك ، الزبون طبعاً طلب منك مُبايعة فأنت وافقت لأنه ببساطه قدر يشتت تركيزك ومتبقاش مركز غير على المكسب وبس ، طبعاً الزبون ده جه بعدها بكام يوم لأن الموبيل كان لا يمكن حد يشتريه ولا يتفاوض عليه بالسعر ده ودي حاجة هو كان واثق منها ، كتبتله المُبايعة اللي بيها هو بقي بعيد تماماً عن المشكلة الكبيرة اللي هي سرقة بنت لواء الشرطة ، دا غير طبعاً الأصابات العضوية والنفسية اللي أنت سببتهالها ، طبعاً كل اللي أنا قلته ده مجرد وجهة نظر تحتمل الصواب أو الخطأ بس مفيش عليها دليل واحد طبعاً .

وسام مازال يُسجل أرقاماً قياسية في السقوط في قاع الظلمات والدوامات التي لا تنتهي خاصتاً بعد ذلك التحليل المنطقي الأقرب إلى الصواب ، ثمة شيء يوكز صدره من الداخل ، هكذا صارت العلاقات بين الأصدقاء ، هل تسلل فيرس الخيانة إلى بطانة المجتمع ، حكَ وسام رأسه وكأنه يتأكد أنه ليس داخل غياهب كابوس مريع ، أردف وكيل النيابة بشيء من العقلانية .

- أنا هخرجك بكفالة بس خد بالك أن القضية لسه شغالة ، لو مكنش في دليل ضدك أنا كنت أفرجت عنك ، أنت تحاول تحل الموضوع ده ، تشوف محامي كويس تحكيله اللي بيحصل .

أومأ وسام برأسه في أستسلام .

***

بعد مرور ثلاثة أيام .

وسام فشل تماماً في الوصول إلى بندق ، لا يعرف أين أختفى ولا يدري هل تم أستدعائه في قسم الشرطة أم لا ، حتى أصدقائهم لا يعرفوا عنه ثمة شيء .

وسام كئيباً صامتاً داخل مَتجرُه وكأن على رأسه الطير ، هائماً على وجهه ، يأوي أحد الأفلاك ويسبح بها في خياله ، يفكر بعمق فيما حدث له ، فكيف يجد نفسه في أقل من أسبوع واحد متورط في قضية سرقة ابنة لواء شرطة بسبب بيع هاتفاً مستعملاً ، يحاول جاهداً أن يجد منفداً يصلح للهروب من تلك القضية في الوقت الذي طالبه فيه المحام المحنك قانونياً الذي وكلُه ببعض الوقت لدراسة القضية ، قطع حبل أفكاره ظهور ثلاثة شباب أمامه لديهم طابع إجرامي واضح لا يمكن التحايل عليه ، أوسطهم شاب أبيض يبدو زعيمهم ، ، قوي الكتفين كالخرتيت ، يمتلك بنية قوية كانت تمتلأ بالعضلات قبل أن يتكاسل عن ممارسة الرياضة التي أدت إلى فرط شديد في نشاط غدتُه الدرقية التي عمِلت على انهيار نظام التمثيل الغذائي الخاص به فمتليء جسده بالدهون ، قاسي الملامح بدرجة تجعلك ترتجف حينما تصتدم بعينيه ، ينتمي إلى الطراز المتجهم طوال الوقت دون وجود سببٍ واضح ، يعوج فمه على جانب وجهه حينما يتحدث ، يعاني من اتساع ملحوظ بجبهته وفرط كِبر حجم أذنه ، تنطبق عليه النسخ الخمسة لنظرية الرجل المجرم لـ " تشيزري لومبروزوَ " ، أرّتصوا على شكل نصف حلقة دائرية حول وسام فبدوا جميعاً كالضباع حينما تلتف حول شَّادِن تائه ، ينظر لهم وسام كالفأر الصغير الذي وقع في المصيدة .

بصوت أجش غليظ لا ينُمُ عن أي نية للتفاهم سأله .

- أنت وسام .
- آه ، ليه ؟؟!!
- طب بص بقى يا حلوة ، عدة التليفون بتاعت بنت اللواء دي لو جه فيها أسم بندق هيجي فيها أسمي وأنا لو جه أسمي هندّمك ، مش هتحبس ببلاش ، أنا ممكن أولع في الدُكانة دي وأنت جواها وهتبقى قضاء وقدر ، أعقل كدة يا بن الناس علشان معملهاش معاك ، اللواء مش هيحبسك لأنه عارف كويس جداً أنك مش أنت اللي سارق هو عاوز اللي وراك ، المصدر ، اللي هو أنا ، فيا تسكوت ورجليك فوق رقبتك يا أمَّا تتكلم وتبقى رقبتك بس .
- يعني أشيل شيله مش بتاعتي .
- شكلك لمض أوي وهتتعبني ، أنا مش عاوز أجي أزورك تاني علشان زيارتي اللي جيه مش هتبقى كدة خالص ، وخد دي بقى للذكرى .

أخرج زجاجة مولوتوف خضراء وضربها في الأرض بكل قوة فتناثرت أجزائها كالشظايا في كل مكان ، أرتجف وسام وأغمض عيناه خوفاً بعدما أشاح بوجهه بعيد وكأن هناك قنبلة ستنفجر .

- المرادي ضربت الملوتوف مطفي ، المرة اللي جيه هولعه وهولع بيه المحل ده كله وأنت فيه ، سلام يا حلوة .

فتح وسام عيناه ببطيء شديد وكأنه يتحاشى رؤية شيئاً مريعاً على يقين تام بوجوده ، جسده يرتعش وكأنه مصاب بحمة ، لا أثر لأحد !! تبخر ذلك الكيان الأجرامي وتبخر معه الجميع ، ظل يرمق شظايا الزجاج المتناثرة على الأرض ، يشاهد بثبات بقعة البنزين التي تتسع دون توقف ، يُحاول أعادة السيطرة على أعصابه التي أفلتت زمامها ، ما حدث أمامه من بلطجة مُتجسده في أبشع صورها ترك في نفسِه أثاراً سيئة ، وأعطى له أحساساً غريباً بأنه أنتقل عبر آلة الزمن إلى وقت الفتوات حيث البلطجة وفرض الرأي بالقوة ، الويل كل الويل لمن يعصى لهم أمراً ، يجعلوه عبرة وآيه لكل من تسول له نفسه بفعل شيئاً مماثلاً ، ما حدث مع وسام اليوم ليس بمنأى عما كانوا يقترفوه هؤلاء الفتوات مع الضعيف العاصي ، ظل ذاهلاً ، لا يُصدق ما حدث معه ، يتمنى لو يستيقظ الآن على شهقة عالية ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن يرتشف شربة ماء ويتأكد أن ما حدث كان كابوساً ، لكنها الحقيقة بعينها ، ترجل بِثِقل وتردد شديد تجاه باب المَتجر ، وقف في ذهول ينظر يميناً ويساراً وكأنه يشرع في عبور شارع مكتظ بالسيارات المسرعة فشاهد شاب أخر له هيئة رثة لا تقل إجراماً عن هؤلاء اللذين كانوا يقفون أمامه منذُ لحظات ، يقف على مسافة ليست ببعيدة عن باب المَتجر ، يُشير في غِلظة متوعداً لهُ بالويل إذا سولت له نفسه بمخالفة تلك التعليمات التي أقروها أمامه منذُ دقائق ثم توارى خلف البنايات الكثيفة .

***

ما زال وسام يجلس بيننا في شقة مكسيكي ، يقص علينا قصته وهو ينظر إلى نقطة وهمية على الأرض ، مأساته الشديدة ، هل صارت الدنيا هكذا ؟؟ ، هل وصل الحال ببني آدام إلى هذه الدرجة من الظلم ، هؤلاء ليسوا بشراً ، هؤلاء جبابرة سينتقم الله منهم لا ريب في ذلك .

- ودي بقى حكايتي اللي حابب أني أضيفها في روايتك اللي قالي عليه مكسيكي .
- بس كدة الحكاية منتهتش .
- هي فعلاً منتهتش ، أنا عندي أول جلسة في القضية اللي مليش يد فيها أول الشهر اللي جي .
- ربنا معاك يا وسام ، طب المحامي قلك إيه .

أبتسم ابتسامة خفيفة ثم أجاب في أسى .

- قال لي موقفك ضعيف بس هو هيحاول يلاقي ثغرة أخرج بيها من القضية ، المشكلة أن الأدلة المادية ضدي ، المُبايعة اللي بندق غفلني فيها دي هي أساس المشكلة كلها واللي فعلاً ممكن أتحبس بسببها .
- طب مقولتش ليه على البلطجي اللي جه هددك واللي تقريباً أعترف قدامك أنه هو اللي سارق .
- قلت للمحامي قال لي مفيش دليل ضدده ولا شاهد حتى واحد على الواقعة ، كمان أنا معرفش أسمه ، يا دوب أعرف مواصفاته ، الوحيد اللي عارفه هو بندق اللي مش عارف أوصله واللي إذا واجهته في المحكمة أكيد هينكر ، هيقول ده أدعاء كاذب .
- دا إيه العُقد دي .
- أنا مش جي أنشر القصة بتاعتي علشان الناس تتعاطف معايا أو علشان حد يدرولي على حل أو دليل براءة ، أنا جيت أنشر القصة بتاعتي علشان الحمد الله وبفضل من ربنا مُعدل القراءة في مصر بدأ يزيد بشكل كبير والأدب بدأ ياخد حقه المهضوم ، ودي تعتبر قناة جديدة ضمن القنوات المهمة اللي من خلالها ممكن تُبث معلومات وثقافات تفيد الناس بشكل كبير ، قضيتي ممكن تكون تايهه عن بال ناس كتير ، علشان كدة حبيت أني أوصل للناس حاجة جديدة ، رسالة مختلفة ، في كام واحد في مصر ممكن يشتري موبيل مستعمل ، كتير ، كتير جداً كمان ، فوارد جداً يكون ورا الموبيل ده مُصيبة ولا حادثة ولا أي حاجة ، ممكن يكون مسروق أو صاحبه أتقتل ، مش شرط يلبس القضية بس كفاية بهدلة المحاكم ، أي حد يشتري موبيل لازم يطلب مُبايعة من المحل اللي أشتراه منه ولو رفض ميشترهوش وأوعى يغريك بسعره الضئيل علشان أنت متعرفش الموبيل ده وراه مصيبة نوعها إيه .
- بس مش كل موبيل مستعمل وراه مصيبة .
- وليه أجازف ، ليه أحط نفسي في موقف يمكن ، ما أقطع الشك باليقين .
- وجهة نظر جديدة برضو .
- وجهات النظر بتتكون نتيجة الخبرات اللي بنكتسبها من المشاكل والمِحَن اللي بنعدي بيها ، وأنا بقى وجهة نظري دي أتشكلت نتيجة المشكلة اللي وقعت فيها فبحاول أوصلها للناس علشان محدش يقع زي ما أنا وقعت ، عارف لو كل واحد حط في دماغه أنه يفيد اللي حوليه بالخبرات اللي عنده هنبقى أحسن بلد في الدنيا لكن المشكلة أن ٩٠% مننا بقى بعيد عن عاداتنا وتقاليدنا اللي هي أصلاً طلعة من رحِم الأديان السماوية .

غمغمت طويلاً ، تركت عقلي يُحلل ويُفكر في ذلك الكلام .

- عموماً أنا عملت اللي عليه وحسيت أن ممكن أقدم رسالة من خلال تجربتي وقدمتها من خلال روايتك لأني ببساطة مؤمن بالقراءة ، وأتمنى أن قصتي دي تفيد الناس ، لأن الحياة بقت كدة ، كلها مطبات وحوارات ومشاكل ، محدش بقى يراعي ربنا .

- فعلاً يا وسام ، الحياة بقت كدة ، بجد مش عارف أقولك إيه ، أنت شخص محترم وربنا إن شاء الله هيطلعك من المحنة اللي أنت فيها دي والقضية بتعتك دي هتخلص على خير .
- إن شاء الله .

قالها وسام مبتسماً بوجهه البشوش .

***

قتل عمد

بناية فسيحة تتكون من عدة طوابق ، أختلط شكل وجهتها الخارجي باللون الأحمر " الطوبي " والأبيض البهيج ، الطابق الواحد يتكون من عدد كبير من الفصول المتجاورة التي تكتظ بعدد كبير من التلاميذ ، عدد يفوق ذلك العدد المنقوش في مواصفات تصميم ذلك المبنى ، متر * متر وربع هي المساحة الشخصية لكل طالب داخل الفصل ، عليه أن يتحرك ويتنفس ويلهو ويمارس الأنشطة في ذلك المتسع الذي ورثه عن طلاب العام الماضي ، أمام تلك البناية الفسيحة مباشرةً فناء كبير يتسع لأستيعاب طاقات هؤلاء الطلاب الزاحفين نحو سن المراهقة ، يتحول ذلك الفناء الواسع إلى ملعب كرة قدم في بعض الأحيان لأحتوائه على مرميين فارغين - أي بدون شبكات تُؤكد دخول الكرة في أحضان المرمي - لا يهم وجود الشبكة فالحمد الله على نعمة المرمى من الأساس ، هذا هو حال لسان هؤلاء الطلاب الذين لا يعيقهم عدم وجود شبكة في المرمى فهم من الأساس يلعبون المباريات على مرميين غير متقابلين ، مرمى يُشير إلى أتجاه والأخر يُشير إلى أتجاه مختلف فيتحول الملعب من ملعب مستطيلي إلى ملعب على شكل رقم ٦ .

تلك البناية الفسيحة والفناء الذي يضم أغرب ملعب كرة قدم في التاريخ محاطين بسور كبير مكتوب عليه بريشة فنان مبدع يعمل كخطاط لحين ظهور فرصة عمل أفضل " مدرستي ، نظيفة ، جميلة ، متطورة " بجوارها رسومات رضيئة لأطفال تصلُح وجوههم لبوسترات أفلام الرعب الكوميدي وهم يرتدون زياً مدرسياً مُشابه للزي الخاص بالمدرسة ، أسفلها وبخطٍ صغير ترك ذلك الفنان رقم هاتفُه بجوار ذكرى تركها بلون مميز مختلف " سمسم الخطاط " ، أطنان من الأوراق وأكياس الحلوى الفارغة تجمعت عن عمد أمام كلمة " نظيفة " وكأن الجميع تكاتل لإحراج هذا السمسم الخطاط ، سور تلك المدرسة التي تقع على مسافة قريبة من شارع باب البحر تم طلائُه من فترة قصيرة لكنه كالعادة فشل في النجاة من عبث مراهق سادي كتب بخطٍ رديء " مبروك الدهان الجديد " .

" مدرسة الحرية الأبتدائية والأعدادية المشتركة "

باقي من الزمن ثلاث دقائق على سماع دوي جرس طابور الصباح ، الساعة الآن الثامنة ، أزفت الأزفة ، سحابة صغيرة من الأتربة تظهر على أرتفاع بسيط عن الأرض بالقرب من باب المدرسة من الداخل وكأن قطيع من الأبل يهرع من هجوم مُباغت شرس ، يظهر وسط تلك السحابة حذاء رياضي يحمل اللون الأبيض المتشابك مع الأزرق في أماكن متفرقة من حذاء الأستاذ روبي مدرس التربية الرياضية بالمدرسة ، يظهر كل يوم مع إنطلاق دوي جرس الطابور ليصب العذاب صباً على كل من يتخلف عن مِعادُه ، كعادته يظهر وفي يدِه خرطوم مياة أسود أنتزعُه من غسالة تالفة ، خرطوم غليظ مزود بتيلة من الكتان تُزيد من صرامتُه وتمنعه من الانثناء بسهولة ، يرتدي " ترنج " رياضي يُبرز كرشه أمام جسده النحيف فيبدو وكأنه خرج من أفلام الرسوم المتحركة .

مجموعة من الطلاب يُهرولون تجاه باب المدرسة الأسود الكبير الذي يقف بجواره الأستاذ روبي وبصحبة خرطومِه ، يُهرول الجميع في حالة فزع محاولين تخطي تلك البوابة دون أن يصافحهم ذلك الخرطوم الضرير الذي لا يدرك على أي جزء من أجسامهم سيترك علاماته الزرقاء ، هناك على مسافة بعيدة طالب يُجاهد بأقصى سرعه ممكنه للوصول إلى بوابة المدرسة لكن وزنه الزائد يمنعه من تحقيق ذلك الحلم سريعاً ، بدين لدرجة تجعلك لا ترتاب في أنه ينفق مصروفه اليومي بالكامل في شراء الحلوى الغنية بالسعرات الحرارية ، يتنفس بصعوبة بالغه وكأنه مُصاب بداء الربو ، ظل الأستاذ روبي يسخر منه ومن جسدِه الذي خرج عنهُ كُتل من الدهون مائعة المظهر طيلة المدة التي استغرقها للوصول إلى بوابة المدرسة ، سخرية سَمِجة ، سخيفه مصحوبه بـــ " دم تقيل " لكن ضحك كل الطلاب المتواجدين على مسافة تسمح لأُذنهم بالتقاط تلك السخرية مجاملتاً وإرضائاً له فربما يُخفف عنهم هذا العذاب ، هذا هو ثاني درس نفاق يتعلمه الطلاب بعد الدرس الأول الذي كان يتلخص في تقديم هدية عيد الأم لتلك المدرسة البدنية التي تكرهها وأنت تبتسم .

" يوسف " طالب في الصف الأول الأعدادي ، دائماً ما يُشعرك بأنه مكتئب ، حزين ، يُعاني من مشاكل نفسية فغالباً تجدُه منغلقاً على نفسِه تماماً ، قلما يضحك أو يبتسم ، مُتقوقع

على نفسِه في عالمِه الخاص الذي لا يعرف أحداً عنه شيء ، يتجنب الأتصال المباشر مع الأخرين ، قليل الأحتكاك بزملائِه وليس لديه أصدقاء ، لا يبدي أهتماماً بأي شيء أو أي حدث يحدث داخل المدرسة ، لا يعير النشاطات أو الرحلات المدرسية أي أهتمام ، أكَدَ معظم الأطباء النفسيين الذي عُرِضَ عليهم يوسف بأنه يُعاني من علامات وأعراض مرض التوحد لكن لم يُجزم أحد أنه يعاني من المرض ، رأي مُعلميه فيه بأنه طالب فاشل بالكاد يُدرك النجاح في أمتحانات نهاية العام بعد إضافة درجات الرأفة ، أفعاله تبدو مؤشراً هاماً على غبائه الشديد الذي يوحي بأنه لن يتعلم شيئاً ، قدراته العقلية عاجزة تماماً عن الأبتكار ، محاولات تعليمه لن تجدي سوي بفشل يعقبُه فشل فهو طالب بطيء التفكير وغير قادر على مواصلة التعليم ، أراء كلها تضَعُه في خانة الأنتظار في تلك القائمة التي تمتلأ بها أسماء هؤلاء الذين يملؤون المقاهي والشوارع دون هدف أو عمل ، حتى الأستاذ عصمت مدير المدرسة يرى أنه طالب غير إجتماعي ، مستواه الفكري أقل بكثير ممن حوله ، يعتقد أعتقاد ربما يصل إلى اليقين بأنه لن يستمر في التعليم بسبب تواضع مستواه العقلي علاوة على أنه يُقسم بأنه أغبى طالب رأه في حياتِه منذُ أن بدأ مسيرته التعليمية كمُعلم في مدرسة ريفية متواضعة في التسعينات ، يتمنى لو ينقش إمضائه على جواب فصلِه من التعليم بشكل نهائي لا رجعة فيه .

هذا باختصار هو يوسف الذي لا ينظر إلى الأستاذ روبي تلك النظرات الشَاخِصَة التي يملاؤها الاشمئزاز والضجر الشديد بسبب استهزاءه بذلك البدين ، اصتدمت مُقلتي الأستاذ روبي قدراً بذلك الوجه الممتقع البادي عليه أمارات الوجوم الثقيل ، ثواني معدودة مرت قبل أن يصب فوق رأس يوسف وابلاً من الشتائم واللعنات الشديدة كأنها حمم بركانية تفرغ محتوياتها فوق رأسِه ، أقترب منه الأستاذ روبي بخطواط سريعة بدا فيها وكأنه سينقض عليه ليفتك به .

- أنت بتبصلي كدة ليه ياض ، أنا مش عاجبك ولا حاجة يا حيوان .

ركل مؤخرته بقوة جعلته يرتفع عن الأرض قبل أن يقبض بمخالبه على شعره الكثيف ويُحركه بعنف كيفما شاء .

- تبص عليه بأدب ، أنت فاهم ولا أعلقك من رجلك يا حيوان .

***

أستمر روتين الطابور اليومي بتلك التمارين التي يُطلقون عليها تمارين الصباح !!! أخيراً أنتهى الطابور بعدما تقدم ثلاثة مراهقين من الشرطة المدرسية لتحية العلم .

صعد يوسف إلى فصلِه وما حدث لا يزال ملتصق بعقلِه ، ما فعله به الأستاذ روبي من أهانات حُفِرت في عقلِه الباطن كما يحفر الطفل المشاغب ذكراه على حائط بساق معدني

رفيع ، جلس في مقعدِه الخشبي الصغير الذي لا يتسع إلا لطالبين فقط ، جلس بجوار أثنين من زملائِه أحدهما بدين لدرجة أنه لا يستطيع غلق فخديه أثناء الجلوس .

دخل الأستاذ " سُنباطي " مدرس اللغة العربية إلى الفصل ، لا يحمل سوى خرزانتُه المرعبة وطناً من الثقة والعزة بالنفس ، يشعر الأستاذ سُنباطي من داخله أنه يتفوق على " البُحتري " في علوم الشعر و " أبو الأسود الدؤلي " في علوم النحو و " الجرجاني " في علوم البلاغة ، يطلق عليه الطلاب بينهم لقب " الناشف " وذلك بسبب شُحِه وبخلِه الذي يتجسد في ملابسه وسيارته التي لا تعمل إلا بالسُباب والإهانات ، قصير القامة إلى حد ما ، ذو وجه دائري منتظم تشعُر أنه رُسِم ببرجل ، أصلع تقريباً إلا من بعض الشعيرات التي تُجاهد لتُعبر عن نفسها ، له غمازتان ظاهرتان طوال الوقت فتشعر وكأنه فقد بعض أسنانه ، يرتدي قميص وبنطال بلغوا من العمر عتيا .

جلس على ذلك الكرسي الخشبي أمام تلك المنضدة المتواضعة أمام أعين التلاميذ بعدما نقش على السَّبُّورَة تاريخ اليوم ثم أضاف كلمة " الوحدة الرابعة " .

- أفتح يا جحش منك ليها له كتاب الوزارة على صفحة ٦٤ واللي مش معاه كتاب المدرسة يرفعلي أيدُه علشان أروقْه .

نظرة ماسحة للفصل أكتشف فيها أنَّ هناك طالباً لم يحضر معه كتابه المدرسي ، طلب منه أن يأتيه لينال تلك العقوبة التي يستحقها ، أشار إليه بخرزانته الملفوف على سطحها بالكامل شريط اللحام الأسود ، أقترب منه ذلك الطالب الساهي وقلبه يخفق بين ضلوعه رعباً ، نال ما نال على جسده ويداه ثم أمرُه بالوقوف بجوار سلة المهملات البلاستيكية لأنه ينتمي إلى فصيلة تلك القمامة المتجمعة بداخلها .

- يلا يا جحش منك ليها له أفتحوا الكُتِب على درس النهاردة صفحة ٦٤ ، الدرس بعنوان " مَحكمَةُ الأشجار "

تأفف الجميع وتعالت أصوات تَقلِيبُ الصفحات ، أردف السُنباطي وكأنه يتشاجر معهم .

- الدرس ده بيفهمنا أد إيه الأشجار دي بتتألم وبتحس ، يعني لما يجي عيل وسخ من الأوساخ اللي مش متربية زي اللي في الفصل هنا دول ويشد أم الشجرة من أم ورقها بتبقى بتتألم وعاوزة تشتم أمه بس مش قادره ، الشجر ده نبات ، والنبات بيحس زيه زيك بالظبط ، تحبوا أمسك فروة رأس حد منكم وأقعد أنتف منها شعرها ، أكيد لا ، الدرس ده بقى بيحكي عن عيل وسخ أسمه قاسم يعني الصراحة كفاية أسمه يعني ، أسم سئيل زيُه بالظبط ، المهم العيل الوسخ ده بقى عمل إيه ؟؟؟ ، فضّل يشد في ورق الشجر لحد ما الشجر هاج عليه ، طلعوا عليه طلعه صح وقفشوا وقرر يعملُه مُحاكمة ، عقبال كدة لما أحضر مُحاكمة واحد واحد منكم يا قادر يا كريم .

يُتابعه الجميع بأفواه فاغره وفي حالة من الذهول التام ، صرخ السُنباطي في الجميع بنبرة صوت جعلت الجميع ينتفض .

- أنتم بتبصولي كدة ليه ، هو أنا بحكي حكاية قبل النوم يا جحش منك لُه ، اللي مش هيبص في كتابه ويركز معايا هظبتوا ، فاهمين ولا لا .

أوجست في نفس الجميع خيفة غريبة فرَاحَ كلاً منهم ينظر في كتابه في تركيز مُصطنَع ، أردف السنباطي بلهجة أمِره .

- قوم اقرأ يا سُفيان .

نهض ذلك القصير الذي تقترب ملامحه من ملامح سُقراط في فيلم العفاريت ، شرع في قراءة الدرس وباقي زملائه يُرددون خلفه كل جملة يقرأها وكأنهم في كُتَّاب بمنطقة ريفية نائية ، يُرددون بنشاط وباستماته لكن دون فهم ، لا يجرؤ لأحدهم أن يستفسر عن شيء حتى لا يحدث معهُ ما حَدَثَ لزميلهم حلواني حينما ظل يستفسر عن كل صغيرة وكبيرة فضربهُ الأستاذ سنباطي حتى تورمى خديه بعدما وصفهُ بالمشاكس المشاغب الذي يُحاول عركله حركة التعليم !! ، لذلك قرر جميع الطلاب ألا يسألوا عن اشياء تُبد لهم تسؤهم !!!! يوسف لا يُردد معهم ، لا يفعل مثلما يفعل باقي القطيع !! ، فقط ظل منكباً على صفحة الكتاب يرسم بقلمِه خطوط طولية وعرضية متقابلة ومتقاطعة على تلك الفراغات البيضاء الموجودة على يمين ويسار الدرس ، رمقه زميله البدين السمج الذي يجلس بجواره فصاح بصوتٍ عالٍ .

- يوسف بيرسم ومش بيقول معانا يا أستاذ سُنباطي .

أتسعت عين يوسف وهو ينظر إليه بتعجب شديد وسط أبتسامات الظفر التي علت وجهه العملاق كأنه حقق أنتصاراً مُستحقاً ، ما هذا الكائن السَمِج الذي خُلِق من زُلال!!! نظر إليه سُنباطي كالضبع الجائع ، هب واقفاً وبلهجة أمِره جعل سُفيان يتوقف عن القراءة ، هرول تجاه يوسف بعدما أمر الجميع أن يصفقوا لذلك البدين الذي ظل يبتسم بـ " خدوده المربربة " وكأنه حصل على جائزة الدولة التقديرية ، لم يُعاقِب سُنباطي ذلك البدين ليزرع في قلب الجميع كُره الفتنة ، تصرف غشيم من مُعلم سطحي سيؤدي حتماً لظهور نماذج من هؤلاء اللذين على أتم أستعداد لفعل أي شيء يجعلهم مُقربين من من هم أعلى منهم درجات ومناصب ، سطحية السنباطي ستدفع هؤلاء المراهقين إلى تكوين بوادر الفكر الوصولي الذي لا يضم أي أخلاق وسينتشر بينهم مثل الوباء ، نظر السنباطي إلى يوسف بوجه ممتعض ثم سألهُ بلهجة رثة .

- أنت مش بتردد مع زميلك ليه يا جحش أنت ؟؟؟

أرتفع بصرُه ونظر إلى وجهه الممتعض طويلاً دون أن يُجيب على تساؤله .

- أنا سألتك سؤال يا حيوان ، مش بتردد مع زماليك ليه ؟؟

خرج ذلك المتقوقع عن صمته قائلاً " مش بردد لأني مش مقتنع بالطريقة دي أصلاً " ، ضحك الجميع بهستريا قبل أن ينتفض السُنباطي وكأن مسه عقرب .

- مش إيه !!! مش مقتنع !! بقى حيوان زيك أنت مش عاجبه طرقتي بعد ١٢ سنة تدريس ، بقى أنت يا فاشل اللي هتعلمني أزاي أشرح ، أفتح أيدك يلا ، أفتح أيدك دا أنا هنفخك .

بَسَطَ يداه لينال عليها ما رأي السنباطي أنه يستحقه ، وقعت عيناه قدراً على تلك الخطوط المتقاطعة التي تملأ كل الفراغات البيضاء الموجودة بالصفحة ، نزع الكتاب ورفعه للجميع وكأنه أردا أن يوشي به وبأفعاله الخاطئة .

- شايفين البيه اللي مش عاجبه طريقتي في الشرح والتدريس ، قاعد عمال يرسم ، عاملي فيها بيكاسو ، لا بيكاسو إيه ، بيكاسو كان فنان إنما ده خطاط معفن وزبالة ، رسم زبالة زي وشه بالظبط .

ألقى الكتاب في الأرض ثم أردف في عصبية " قاعد بترسم السلم والتعبان يا حيوان " ، صفعه على وجهه صفعة كادت أن تقتلع عيناه من قوتها ، ألتمعت عيناه بالدموع لكنه أصدر قراراً بعدم أطلاق صراحها تنزلق على وجنتيه حتى لا يظهر بمظهر الضعيف أمام الجميع ، عَلَقَ السنباطي ساخراً مستهزئاً .

- إيه يا لولو ، زعلانة يا حبيبتي ، هتعيطي يا توتو .

أنفجرت الضحكات الهستيريا في الفصل ، أردف السُنباطي للجميع .

- يلا يا ولاد كله في وقت واحد ومع بعض يقول ليوسف يا لولو .

" لولو ، لولو ، لولو ، لولو " أخذ يرددها الجميع بسخرية واستهزاء بلغ أقصاه ، لم يسهى ذلك البدين السَمِج عن هز جسده الأشبة بكتلة من " الجيلي " على نغمات كلمة " لولو " التي يُرددها الجميع كنوع من الأستفزاز لزميل المقعد الضيق يوسف التي تملأ عيناه نظرات الضجر الشديد ، أشار لهم السنباطي فتوقف الجميع .

- شكراً يا سُفيان ، قوم أنت أقرأ يا غبي .

تبادل الجميع النظرات بينهم جاهلين ذلك الغبي الذي أمرُه المعلم بالقراءة .

- إيه مش عارف نفسك يا يوسف ، أول ما أقول يا غبي تعرف أنه أنت يا يوسف علشان أنت الغبي الوحيد اللي عندي في الفصل .

وجه كلامه للجميع " عرفتم بقى مين الغبي يا ولاد " أجاب الجميع في صوتٍ واحد " آه " خرج البدين بصوته الغليظ الأجش " يوسف ، لولو الغبي " كادت جدران الفصل أن تتصدع من الضحكات التي أنفجرت بداخلِه ، أمرهم السُنباطي بالهدوء ليبدأ الغبي بالقراءة .

بدأ يوسف بقراءة الدرس والدموع تتساقط من عيناه فتتجمد قبل أن تصل إلى خدِه ، كلما نطق كلمة بها خطأ لغوي أو نحوي صححها لهُ هذا السنباطي مردداً بعدها كلمة "يا غبي" .

تنفس الصعداء مع سماع صوت جرس أنتهاء الحصة لتبدأ بعدها حصة " أبلة إيمان " معلمة الحاسب الآلي ، امرأة متوسطة الطول ، ترتدي خِمار وفي يدها اليمنى مُذكرة مكونة من عدة صفحات مكتوبة على برنامج الـ Word ، في يدها اليسرى عصا برتقالية اللون لا تدري من أين أتت بها ، وهبها الله حنجرة وأحبال صوتية تؤهلها للغناء الأوبرالي ، إذا صرخت تحطمت كافة الألواح الزجاجية الموجودة في المدرسة ، تمتلك كف يد يبدو من الوهلة الأولى وكأنه خُف جمل صومالي ، ينتمي إلى تلك الكفوف التي يمتلكها المخبرين ، تستخدمه في ردع أي طالب يُحاول مخالفة أوامرها ، أقتحمت كعادتها الفصل وهي تحت تأثير حالة لا توصف من الأنفلات العصبي و العقلي ، ألقت بمتعلقاتها على المنضدة الصغيرة وحاجبيها يحتضنى بعضهما البعض من شدة العبوث ، كعادتها تبدأ حصصها بوابل من الأسئلة التي تنتهي بصرخات هؤلاء الطلاب الذين لا يقتطعون جزءاً من وقتهم من أجل مذاكرة مادة الحاسب الآلي ، من لم ينطلق لسانه ويُجيب على أسئلتها التي لن تخرج عن تلك المُذكرة التي ابتاعها الجميع منها سيقع أسيراً تحت أفكارها السادية التي تبتكر فيها يوماً بعد يوم ، من وجهة نظرها هذه هي الطريقة الأمثل في التعامل مع هؤلاء المشاكسين حتى لا يتسلل إلى أنفسهم أنَّ مادة الحاسب الآلى ليست ذو أهمية كبيرة ، أشارت بعصاها إلى أحدى الطالبات بنبرة صوت لا تنُمُ عن أي خير ، وقفت الطالبة ببطء من تثق بأنها ستتعثر في أجابتها ، وقفت بقدمين من الجلاتين لا تقدران على حملها ، ترتعش وكأنها تتلقى أخر أنذارات جهازها البولي قبل أن تُفرغ مثانتها حملها الزائد ، فتحت " أبلة إيمان " مُذكرتها العجفاء وحاجبها الأيمن يرتفع إلى أقصى مدى لهُ في تحدٍ بالغ ، تبحث عن سؤال تعجيزي لتتعثر تلك المسكينة فتجعلها عبره أمام للجميع ، تُقلب الصفحات بعصبية كادت من فرطها أن تتمزقُ ، سألتها بسادية تُشعرك وكأنها سجّانة وليست معلمة فاضلة .

- قوليلي يا بت ، ما هي أستخدمات الحاسب الآلي في حياتنا اليومية ؟؟ السؤال من الوحدة الأولى " الكمبيوتر في حياتنا اليومية " ، السؤال من الملزمة وعلى الله متجوبيش علشان يبقى يومك زي وشك .

أرتفعت عين تلك الطالبة إلى السقف قبل أن تستدير حول نفسها في حركة دائرية ، أستمرت على تلك الشاكلة دقائق حتى أرتفعت زمجرة " أبلة إيمان " وبدأت وكأنها تُقدم على افتراسها ، بنبرة صوت مرتجفة غير واثقة أجابة .

- إدارة ميزانية المنزل ، إرسال رسائل بريد إلكتروني ، عرض الأخبار والمعلومات ، تعلم لغات جديدة ، مشاهدة الأفلام وممارسة الألعاب .

حانت منها ابتسامة تُأكد أنها امرأة شرسة .

- جدعة يا بت ، أنتِ حفظاهم بنفس الترتيب اللي معمول في الملزمة بتاعتي .

صاحت في وجه الجميع " سقفولها " ، صفق لها الجميع هلعاً ، يوسف يرفع يداه في تساؤل ، رمقته تلك الشرسة بنظرة نارية ثاقبة .

- أفندم .

نهض يوسف وسألها بتهذب شديد .

- يعني إيه إدارة ميزانية المنزل ، مش فاهم إيه المقصود بيها ؟؟؟

تجسد الجنون في جحوظ عيناها وهي تنظر له بملامح تتجهم شيئاً فشيء ، أنعقد حاجبيها وهي تصرخ في وجهه بنبرة صوت كادت أن تصمُ أُذُنيه .

- وأنت تفهم ليه !!! ، أنت تحفظ اللي مكتوب في الملزمة وبس ، وتسمع كلامي ، أنا قلتلك أفهم ؟؟

هز رأسه بالنفي فأردفت بنفس تلك اللهجة الشديدة .

- يبقى خلاص ، تحفظ اللي في الملزمة زي ما هو وخلاص .

جلس يوسف دون تعليق بأي كلمة ، فقط أكتفى بملامحُه التي تبعثرت من فرط هول إجابتها على تساؤلِه ، أشارت إلى مصطفى بغضب ، مصطفى طالب نابغ ، يشهد لهُ الجميع بالتفوق ، لم تُزحزحُه أي ظروف عن البقاء في المركز الأول على مستوى المدرسة .

- قوم يا مصطفى قولي ، ما هو تعريف البرمجيات ؟؟

أجابها وكأنه إنسان آلى بداخلها نسخة الكترونية من تلك الملزمة .

- البرمجيات هي عبارة عن حزم من الأوامر التي تجعل الحاسب الآلى يؤدي مهامه .
- شاطر ياض يا مصطفى ، لا وبالنص من الملزمة .

صاحت في وجه الجميع " سقفوا يا بقر " ، صفق الجميع هلعاً أيضاً ، نظرت ليوسف بملامح وجه توحي إليك بأن لديها شعور جارف بالتقيء .

- برافو يا مصطفى ، مش زي ناس أغبية .

أرتفع رنين هاتفها الخلوي ، أخرجته من دهليز ينتمي إلى تلك الدهاليز التي تُخبيء بها أشيائها الثمينة ، رمقة شاشته ثم تحدثت لأحد تلاميذها بعنفٍ زائد .

- أنا طالعة أرد على التليفون ، اللي هيطلع نفس وديني لعلقه .

انصرفت خارج الفصل ، يوسف ينظر حوله فلا يجد سوى مجموعة من الطلاب تحولوا إلى تماثيل من شمع ، نهض من مكانِه وترجل إلى أن وصل إلى ذلك الطالب النابغ الذي يُدعى مصطفى ، جلس بجواره القرفصاء وسأله بصوتٍ هامس بالكاد يسمعه .

- مصطفى ، مصطفى .
- عاوز إيه يا يوسف ، روح أقعد مكانك ، لو مس إيمان شافتك هتضربك .
- أنا مش فاهم التعريف اللي أنت عرفته ده يا مصطفى بتاع البرميجبات ، يعني إيه حزم من الأوامر .

نظر له بوجه تتجسد عليه البلاهه في أعتى صورها .

- إيه يا مصطفى !!! ، قولي بسرعة يعني إيه قبل مس إيمان ما تيجي .
- معرفش يعني إيه ، أنا حافظها كدة بس !! ، مس إيمان قالت أحفظوها .

اصتدم يوسف بذلك الرد الغير متوقع من نبغة الفصل الذي لا تُفارق صورته الشخصية لوحة شرف المدرسة ولن تتزحزح عن المركز الأول منذُ أن بدأوا مشوارهم التعليمي ، عاد إلى مقعده ثم عادت هي إلى الفصل تحمل معها أطنان الطاقة السلبية التي لا تفارقها .

- قولي يا مصطفى ، ما هي أجهزة الأدخال في الحاسب الآلى ؟؟

أجابها سريعاً وكأنه يخشى نسيان الأجابة .

- الفأرة ، لوحة المفاتيح ، لوحة اللمس ، القلم الضوئي ، الماسح الضوئي .

- برافو ، بترتيب الملزمة يا مصطفى ، سقفولوا يا بقر .

رفع يوسف يدُه فور إنتهاء الجميع من التصفيق .

- وبعدين بقى ، هو أنا معنديش في الفصل إلا أنت ولا إيه ؟؟ عاوز إيه يا سي زفت ، عاوز إيه الله يخربيت اليوم اللي شفتك فيه .
- يعني إيه القلم الضوئي يا مس ؟؟
- أولاً أنا أبله يا خويا مش مس ، ثانياً أنا قولت ٩٠ ألف مرة قبل كدة أحفظها كدة ، أحفظها كدة ، أحفظها زي ما هي في الملزمة كدة ، أقول تاني ؟؟؟

أرتفع حاجبها وضاقت أحدى عيناها وهي تُسدد لهُ نظرات خبث لا ريب فيها .

- ولا أنت مشترتش الملزمة بتاعتي زي زمايلك .
- أشترتها ، والله أشترتها بس أنا مش فاهم .
- أشترى الملزمة يا سُفيان .

أخرج ذلك الطفل الأفلاطوني مُفكرة صغيرة ، راجع منها قائمة الأسماء ثم أعلن بصوت أقرب إلى صوت قائد كشافة أنَّ يوسف قام بشراء مذكرتها .

- أنا مش بكذب حضرتك ، بس مش فاهم ، وأنا مش بعرف أحفظ لازم أفهم .
- علشان كدة فاشل وغبي وعمرك ما هتنجح في حياتك ، بص لمصطفى ولا لسُفيان ولا نسمة ، أهم زمايلك أهم وفي نفس سنك ومدرستك ، بس هما أوائل أنما أنت بليد وغبي ، وهتفضل طول عمرك غبي .
- بس حضرتك أنا أتكلمت مع مصطفى وعرفت أنه حافظ مش فاهم ، بيردد الإجابات اللي حضرتِك كتباها لكن ميعرفش يشرحها ولا حتى يعرف يعني إيه .
- مش مهم يا عم الفيلسوف ، المهم أنه الأول على الفصل اللي أنت واحد منه ، ولو مقلتش حاضر وحفظت زي الملزمة ما بتقول وديني وما أعبد لمدّك على رجلك هنا قدام الفصل كله ، فاهم ولا مش فاهم يا غبي .

جفَّ ريقه من فرط غباء تلك الإجابات التي يسمعها على لسان معلمة الأجيال أقصد مُحفظة الأجيال .

أفقدتهم أبلة إيمان سلامهم النفسي لأنهم لا يدركون أياً منهم سيأتي دوره في السؤال القادم ؟؟ ، أياً منهم سيتوقف حجر الرحى مُشيراً تجاهه ، وما سيكون نوع هذا السؤال الذي سيوجه له ؟؟ ، وهل يحفظ الأجابة النموذجية كما كتبتها إيمان أم حاول فقط أن يحوم حولها ، أنسلخ يوسف عن عالمهم المليء بالتوتر والذي لا يرتفع فيه سوى راية الحفظ والصم ، أغمض عيناه وكأنه يُحاول أن يستحضر في خياله شيئاً عظيماً ، أمسك بالقلم وبدأ يرسم دون

أن يُعير لوجود أبلة إيمان أي أهتمام ، يرسم خط طولي بعرض الورقة ، تَتَفرّع منه خطوط غير مستقيمة أشبه بثعابين تتلوى ، أخرج القلم الأزرق والأحمر والأصفر وبدأ يُميز تلك الخطوط عن بعضها البعض ، يغمض عيناه مرة أخرى وكأنه يرى تلك الرسومات في عقلِه الباطن ثم يعاود رسم تلك الخطوط الغير مفهومة .

أنقباضات بسيطة تبدو كومضات لمبات نيون تُحدثها عيناه المغلقة أنغلاقاً طويلاً هذه المرة فيبدو وكأنه يعتصر عقله ، يُجاهد ليتذكر شيئاً ما ، أبتسم أبتسامة خفيفة تنُمُ عن وصولِه لغايته ، فتح عيناه ليجد أمامه أبشع كابوس من الممكن أن يراه مُتجسداً في أبلة إيمان بعدما أستعارت وجه " أبي العضب " ، جحوظ عيناها يوحي بقطع الرقاب في أية لحظة ، حاجبها الأيمن يرتفع تضامناً مع جحوظ عيناها ليكتمل المشهد المُهيب ، جسدها يهتز وقدمها لا تتوقف عن تلك الحركة التشنجية التي توجه فيها ركلات محمومة إلى الأرض بكعبيها ، قطبت جبهتها قبل أن تتسع طاقتا أنفها كالغوريلا ، أشتم يوسف رائحة تلك الموجات السلبية ، شَعَرَ بتصلب الشعر الموجود على مؤخرة عنقه وكأنه يُنذرُه بخطرٍ باطش ، رفعت أبلة إيمان عصاها لأعلى أرتفاعاً شاهقاً أجبر ذراعها على الخروج من الخِمار الذي ترتديه ، هوت بها على كتفيه بقسوة تُشعرك أنها تتعامل مع أحد الرَّقيق وقت بناء الأهرامات ، صرخت بصوتها الأجش بعدما تبعثرت ملامحه على أثر تلك الضربة الغاشمة ، يتلوى وكأن ثعبان نشب أنيابه الحادة في لحمِه ، أنقضت مس إيمان بأصابعها الغليظة الأقرب إلى صوابع زينب على أسطوانة أُذُنِه اليمنى ، تعتصرها بلا رحمة أو شفقه ، برزت أسنانها الأمامية من فمها ضاغطه على شفتيها السفلى كالأرنب ، يتلوى ذلك المسكين ألماً وهي تعتصر أذنُه بقسوة وعنفٍ زائد ، سحبته خارج المقعد ثم أنهالت على جسدِه بعصاها الضريرة وهو يصرخ بين يديها وكأنه يُسلخ حياً .

- بقى أنا حارقه قلبي في الشرح والأسئلة من الصبح وأنت عمال تغمضلي في عينك وترسم ، بتحضر أرواح في الحصة يا بليد يا غبي .

تستمر في ضربه بلا هوادة .

- وديني وما أعبد لكون مسلماك تسليم أهالي لحضرة الناظر علشان يشوفلي حل ، ولا يا مصطفى تعالى أقف على الفصل واللي يتنفس أكتبلي أسمه .

سحبته من أذنه كخروف الأضحية وقت نحره إلى مكتب الناظر ، الدموع تحتشد في عينيه ، يُجاهد كي لا يصدر قراراً بأطلاق صراحها أمام الجميع حتى لا يشعر بالخزي والضعف .

***

مكتب خشبي كبير ، على سطحِه لوحة خشبية صغيرة حُفِرَ عليها بخط مُهَذب " أ / عصمت الدغيدي " ، أسفلها بخطٍ رقعة مُزخرف نُقِشت كلمة " مدير المدرسة " ، هدية قدمها أحد المدرسين اللذين يتعاملون بمنطق النفاق الأعظم ، خلفه جلس رجل ممتليء الجثة ، يمتلك كرش أسطوري لا يمكن أبداً استيعابه من أول نظره ، هيئته وملامحه تقترب من ملامح الفنان " أحمد عقل " ، يصفف شعره الناعم المختلط بين الأبيض والأسود على طريقة عماد حمدي ، يرتدي عوينات دقيقة لا تتناغم مع وجهه العملاق ، هناك بقايا حروف وكلمات لم تستطيع أن تنجوا من لكنته " الفلاحي " الذي لا يزال يحتفظ بجزءٍ منها ، يجلس على كرسيه الجلدي ، كرشُه بارزة أمامه بشكل يُعبر عن مدى التراخي الذي وصلت إليه عضلات بطنِه ، أقتحمت مس إيمان المكتب وهي تسحب يوسف من أذنيه ، دفعته تجاه المكتب الخشبي .

- أستاذ عصمت ، يا ريت تشوف حل مع الولد الفاشل البليد ده .

ضاقت عيناه وهو ينظر تجاه يوسف من فوق عويناته الدقيقة .

- عمل إيه الولد الغبي ده يا أبلة إيمان .
- أنا حارقة قلب اللي خلفوني في الشرح وكل شوية يقولي مش فاهم وأعيد لهُ تاني ، يقولي فهميني ، أفهمه ، يقولي مبعرفش أحفظ ، أشرحلُه وأفهمه ، وفي الأخر أكتشف أن البيه عامل فيها فان جوخ وعمّال يرسم ولا مهتم بالشرح .

غم غم الأستاذ عصمت في تَفهُّم .

- يعني مش كفاية ولد غبي ومشاغب لا كمان مش بتنتبه للشرح ، وترجعوا تقولوا عاوزين دروس خصوصية ، أصل المدرسين مش بيشرحوا حاجة في الفصل ، آه يا شوية أغبية .

أستدعى " عم سمير " الفَرّاش ، رجل طيب ذو لهجة صعيدية مُحببة للنفس ، طلب منه أن يصعد للفصل ليأتيه بتلك الرسومات التي كان يوسف يرسمها أثناء الشرح ، أماء برأسِه وأنصرف ، عاد بعد عدة دقائق يحمل كراسة رسم كاملة تَعُجُ بالكثير والكثير من الرسومات ، أعطاها إلى أستاذ عصمت فأخذ يُقلّب صفحتها بوجه ممتعض يُشعرك وكأنه ينظر إلى شيء مقيت .

- ييييييييييه ، إيه الأرف ده ، هي دي رسوماتك ، دا أنت رسمك طلع زي وشك ، عارف أنا هعاقبك علشان رسمك وحش لو كان رسم عليه القيمة كان ممكن أسامحك ، كتك الأرف .

أنحنى بصعوبة بالغة وأخرج تلك الخرزانة ذات الشكل المُخيف ، فَزِعَ يوسف حينما أصتدمت عيناه بها ، أتسعت وكأن قد سَبَقَ وتعرف عليها من قبل ، ضرب بها الأستاذ عصمت على سطح المكتب فأصدرت صوت مرعب أرتجف معه قلب يوسف المسكين .

- عارف ياض يا يوسف ، أنت أغبى طالب في المدرسة ، لا أنت أغبى طالب أنا شفته في حياتي الدراسية من أيام ما كنت في كفر الوالي في بلدنا ، تعالى يا غبي وأفتح أيدك .

ينظر له ذلك الصغير بخوف شديد .

- هتيجي يا غبي ولا أخلي عم سمير يربُطك في العَلَم بره .

فتح يوسف كفّيه بتردد ، أعطاه عصمت ما جَعَلَ يداه تتورم ويختلط لونها بين الأحمر والأزرق ، سالت على وجنتيه بعض قطرات الدموع لعل هذا العصمت يرق قلبه لكنه لم يأخذها في أعتبارِه وكأنه كان ينتظر تلك الفرصة لينتقم من يوسف الذي بدأ وجهه يمتلأ بالدموع .

- عم سمير ، الولد الغبي ده يقف بقيت اليوم في حوش المدرسة وشه للحيط ورافع أيدُه لفوق وبكره ميدخلش من باب المدرسة غير وولي أمرُه معاه ، مفهوم .
- مفهوم يا حضرة الناظر .

***

صباح اليوم التالي

أندفاع عدد كبير من التلاميذ تجاه بوابة المدرسة قبل سماع دوي جرس بداية مراسم الطابور المدرسي ، يُحاولون جاهدين الهروب من بطش خرزانة الأستاذ روبي المتربص بكل المتخاذلين والمتخلفين عن مواعيدهم الرسمية ، يوسف يتقدم تجاه البوابة بصحبة والدتُه التي أنتهكت ملامحها الآلام النفسية الشديدة ، تنفيذاً لأوامر ناظر المدرسة بألا يأتي إلا بصحبة ولي أمرِه ، والدة يوسف امرأة في أواخر عِقدها الثالث ، هكذا تُخبرنا بطاقتها الشخصية المنقوش عليها تاريخ ميلادها أمَّا هيئتها فتُشعرك أنها قُبَيلَ الأقتراب من الخامسة والخامسين ، صبرها قد نفد من أفاعيل يوسف التي تنُمُ على أنه طفل أقل بكثير من زُملائِه وأولاد خالاتِه وعماتِه ، كسول ، بطيء الفهم ، دائماً ما يسرح بخيالِه بعيداً ، مُشتت ولا يملك أي قدرة على التركيز ، لكنه في النهاية ولدها الوحيد الذي أنجبته قبل أن يتوفى زوجها في حادث غاشم بعد ولادة يوسف بسنة واحدة فقط ، تترجل في عُجالة تجاه بوابة المدرسة وكأنها ستنال من الأستاذ روبي ما سيناله هؤلاء المتخلفين عن الطابور ، تسحب يوسف من يدِه وهي تُسدد له اللعنات والشتائم لأنه هو السبب في تأخرهم عن موعدهم ، كلما تعثرت

قدماه أو تثقلت في المشي وَجَدَ كلوة يدها تصطدم بكتفه أو ظهره تاركه بعض الآلام الخفيفة التي تزول بمرور الوقت .

- أمشي بقى يا أخي ، مش كفاية تاعبني ومبهدلني ، أمشي بقى ، أمشي .

تصفعُه على خدِه بقوة تُجسد تلك المتاعب التي يسببها لها ذلك الولد بطيء الفهم ، تسحبُه بقوة من يداه حتى عبرت به بوابة المدرسة .

بعد الأنتهاء من الطابور أجتمعت الأم بناظر المدرسة في مكتبه ، الأستاذ عصمت يجلس على كرسيه الوثير ، ينتفش مثل الديك الرومي في موسم التزاوج وكأن بهذا النقاش سيشعر أنه رجل تربوي ذو عمق فلسفي حاد ، يستمع إلى والدة يوسف وهي تسكب في أُذُنيه شكواها المريرة من ذلك الطفل محدود الفكر والذكاء ، تقص عليه بعض المواقف التي تُجسد مدى عنائها الشديد في تربية ذلك الطفل الذي يُعاني من التشتت وعدم التركيز ، ذكرت أيضاً أنه يتغيب عن البيت بالساعات وحينما تذهب لتبحث عنه لا تجده يرتع ويلعب مع زملائه وجيرانه كما هو شائع بين الصبية في نفس عمرِه بل تجدُه يجلس في أحدى كافيهات الأنترنت ، يجلس على جهاز كمبيوتر ولا تدري ماذا يفعل فخبرتها في الكمبيوتر لا تتعدى أنَّ هذه فأرة وهذه لوحة مفاتيح ، أنطلقت من عيناها بعض قطرات الدموع التي سرعان ما قضت عليها بمنديل ورقي بدا عليه الأستعمال مئات المرات قبل أن تعلن أستسلامها أمام أستاذ عصمت الذي بدأ يُسدد نظرات عنف نارية تجاه يوسف المتكوم على نفسه كمن ينتظر عقابه.

- حضرتك راجل تربوي وأب فاضل لكل الطلبة اللي في المدرسة ، قولي بخبرتك أعمل إيه مع يوسف ، أعمل إيه بس .

غم غم الأستاذ عصمت ثم بدأ يتكلم وكأنه سيغموند فرويد .

- أنا شايف أن أبنك مش متربي التربية السليمة اللي بيها يطلع شاب صالح ويافع في المجتمع .

أنخرطت في البكاء وكأنها فوجئت بذلك الرد القاسي .

- خلاص ساعدني في تربيته يا حضرة الناظر ، أنا أم وأب في وقت واحد وبعمل كل اللي أقدر عليه علشان يبقى كويس .
- أنا برضو علشان مبقاش ظلمته هجيب " أبله كوُكب " الأخصائية الأجتماعية المسؤولة عن أعدادي أعرف برضوا رأيها إيه فيه وفي حالته دي .
- اللي تشوفه يا حضرة الناظر .

أستدعى عم سمير ثم طلب منه بلهجه أمره تبرز للحضور مكانتُه الوظيفية كمدير يأمر وينهي كيفما شاء بأن يبلغ " أبلة كوُكب " بأن مدير المدرسة يريدها في مكتبه على وجه السرعة .

صعد ذلك الرجل الصعيدي إلى مكتب الأستاذة كوّكب الموجود في الطابق الثالث ليجدها جالسه على مكتبها منهمكة في إنهاء تلك المرحلة السَمِجة من لعبة " Candy Crush " أخبرها عم سمير بلهجته الصعيدية أن الأستاذ عصمت في أنتظارها ، تململت وزفرت بضجر ، نهضت وتحركت في تكاسل من أستيقظ من نومٍ عميق ، تترجل إلى مكتبه بمزاج مضطرب وهي توزع اللعنات على كل شيء أمامها .

شقَّ ذلك السكون المقيت الذي يعُم مكتب الناظر المتظاهر أمام الحضور بانهماكه الشديد في قراءة عدة تقارير هامه دوي أرتطام الكعب العالي لحذاء أبلة كوُكب بالأرض ، دخلت إلى المكتب بتلك الهيئة التي تُجسد مدى أهتمامها الشديد بنفسها ، " أبله كوُكب " ترتدي اكسسوارات وحُلي تجعلها محطة أنظار للجميع ، أهتمامها المُبالغ بهيئتها وملابسها يفوق أهتمامها بوظيفتها التي لا تُمثل لها أي أهتمام ، حينما يتجرأ أحد ويُخبرها بذلك يُفاجئ بإجابتها المفحمه " الشغل بالنسبالي مجرد وقت بضيعه " ، وقفت أمام مكتب المدير ثم أشارت بأصابعها ذوات الأظافر الطويلة قبل أن تتحدث بنبرة صوت طغت عليها العُجالة الشديدة .

- عم سمير قالي أن حضرتك عاوزني .

أشار بيده تجاه الولد محدود الذكاء " دا يوسف اللي في ١/١ أعدادي ، عارفاه طبعاً .

- طبعاً .

قالتها بكل ثقة .

- دي مامته ، جايه النهاردة علشان تعرف إيه مشكلته بالظبط .

نظرت إليه نظرة طويلة بعيناها الخضراء التي تعطيها طابع النمر فعلاً ، تُحاول أن تتذكر مشكلته الحقيقية ، ألتوت فجأة ملامح وجهها شديد الكبرياء فيبدو أن عقلها قد أصتدم بأفاعيل ذلك الصبي المشاغب ، وجهت إلى والدته اللوم الشديد بلهجة عملية شأن من لا وقت لديهم لمثل هذا السخف .

- لالالا ، أبنك ده مش نافع خالص يا مدام .
- ليه بس كدة عمل إيه الجزمة ده .

قالتها والدة يوسف بقلقٍ زائد .

- لما من دلوقتي وبيشرب سجاير أمال هيعمل إيه بعد كدة ، دا لسه في أعدادي يا مدام ، مش كدة خالص .

أتسعت عين يوسف عن أخرها وهو ينظر لها في بلاهه ودهشة عارمة أدت لتدلي فكِه السفلي إلى أقصى مدى لهُ أمَّا والدته فأخذت تُسدد له نظرات الويل والأبخرة تتصاعد من أنفها كأنها الحمم .

- والله العظيم عمري ما شربت سجاير ولا مسكتها بأيدي حته .

نظر لها ناظر المدرسة وابتسم من خلف عويناته الدقيقة فرتابت كوُكب فيما قالت .

- مش ده يا أبلة كوُكب ، مش ده بتاع السجاير ، التاني أسمه مصطفى حسونة وفي سنة تالتة أعدادي مش في أولى ، وده سلمناه خلاص لقسم الشرطة واتعملوا محضر لأنه أتمسك ببنجو مش بسجاير أنما ده يوسف ، يوسف الغبي .
- خلاص ، خلاص ، هو أنا عقلي دفتر .

قالتها وكأنها ليست أول من تُخطئ داخل سور هذه المدرسة ، نظرت ليوسف طويلاً وكأنها تُحاول أن تتذكر ماضيه ، التمعت عين الصبي وهو ينظر لها بريبة هذه المرة ، لا يعلم ما سيلقي لها خيالها الجامح هذه المرة ، أجابت برعونه زائدة .

- أيوة أيوة أفتكرتُه خلاص ، مكنش يصح أبداً يا مدام أنكم تدولوا موبيل في المدرسة أو في السن ده أصلاً ، منظرُه إيه بقى دلوقتي قدام زمايله وهو ممسوك بمقاطع جنسية ، ها ، منظرُه إيه ، زبالة طبعاً ، دا غير بقى أنه وارد جداً أنه يُصاب بانحراف جنسي في سن مبكر .
- يوسف معهوش موبيل يا أستاذة .
- أبلة كوُكب ،،، التاني أسمه وليد حسونة أخو مصطفى حسونة وعملنا لُه جواب فصل لمدة أسبوعين من أربع أيام ، أنما ده يوسف ، يوسف يا أستاذة كوُكب وحسبي الله ونعمة الوكيل .
- يوووه ، مين يوسف ده ؟؟
- يوسف السباعي !! شكراً يا أبلة كوُكب تقدري تروحي تكملي اللي كنت بتعمليه ولو بعتلك تاني متجيش .

ابتسم لها بسماجة .

- أوك ، أنا في مكتبي .

- أتفضلي وياريت تشكرلنا الباشا وتقولي لهُ حضرة الناظر بيقلك مرسيي جداً يا باشا على الجوهرة الثمينة اللي أهدتها لوزارة التربية والتعليم .
- أوك ، يوصل ، سلام .
- سلام .
- هي دي الأخصئية الجتماعية بتاعت المدرسة !!!!

قالتها والدة يوسف .

- للأسف ، حتت مُدرسة فاشلة شغاله هنا بالواسطة ، بس أنا حبيت أحرجها قدامكم علشان ناوي أفصلها ، بس يارب ينفع لحسن الواسطة بتعتها تقيلة أوووي الصراحة.
- طب دلوقتي مشكلة يوسف أن.....

قطع كلامها أقتحام الأستاذ " مسعود " مدرس اللغة الأنجليزية بالمدرسة ، رجل نحيف ، أسمر البشرة ، ذو شارب كث ، لديه لطعه من الشعر الكثيف تغطي جزء كبير من رقبتِه النحيفة ، عصبي جداً ودائماً يشعر بالتوتر ، صارم الملامح ووجهه لا يعرف أبداً البشاشة ، يؤمن بنظرية المؤامرة ، وجهة نظرة التي كونها طوال فترة عملِه كمعلم تتلخص في أن جميع طلاب المدرسة فاشلين حتى الأوائل منهم ، فمثلهم مثل أغنياء الصومال يُعدوا فقراء جداً مقارنتاً بأغنياء دولٍ أخرى ، يرى أن التعليم سيفقد رونقه إذا رَقَّ قلب المعلمين تجاه طلابهم فلابد من وجود معلمين أقوياء ، أشداء ، يغلظوا على طُلابهم وإلا أنهار التعليم ، لذلك تجدُه يتعامل مع الجميع وكأنه مدير معتقل غوانتانامو وليس كمعلم بمدرسة أبتدائي وأعدادي مشتركة ، لا يجرأ أحد أبداً أن يطلب منه أعادة شرح أي جزء أنتهى من شرحِه حتى ولو أنتهي لتوه وإلا سَمِعَ بأُذُنيه ما لا أُذُن سمعت ، سينال حتماً كماً من الأهانات لا ينالُه مُتحرش تحرش بفتاة في طريق عام ، دخل إلى مكتب المدير فتوقفت والدة يوسف عن الكلام بسبب هيئته الممتعضة وحركاته التشنجية التي تُشعرك بأن أمراً ما سوف يحدث ، تحدث إلى ناظر المدرسة بجدية شديدة جداً لم تخلو من العصبية المفرطة ، مدَّ يديه بمجموعه من أنْصَافٌ الأوراق .

- صباح الخير يا أستاذ عصمت ، أتفضل أمضي على دول من فضلك .
- صباح الخير ، إيه دول يا أستاذ مسعود ؟؟
- عشرين جواب فصل ، لعشرين حيوان عندي في تانية أعدادي .
- عشرين طالب ، هتفصل عشرين طالب مرة واحدة يا مسعود .

نتأت حدقة عيناه وبرزت قبل أن يتحدث بغضبٍ جارف .

- وأفصل المدرسة كلها ، في إيه !! ، دول شوية حمير مش جيين علشان يتعلموا ، هتمضي ولا أطلع وأبعتهملك جثث .
- أهدي بس يا مسعود أهدى مش كدة .

- مش ههدي إلا لما العيال دي تتشرد ومستقبلها يدمر وعلى أيدي وأيدك أنت كمان ، ولا أنت شايف حاجة تانية .
- نشردهم يا مسعود ، نشردهم حاضر ، بس هما فين .
- فوق ، مُتحفظ عليهم في الفصل بمساعدة عشر طلاب من الشرطة المدرسية .
- إيه ده ، في إيه ، المفروض أني بكلم مع الأستاذ مسعود ، مش مسعود ديلينجر .
- هتمضي على جوابات الرفد ولا أرمهملك من فوق .
- طب هما عملُه إيه لكل ده ؟؟؟
- البهوات في تانية أعدادي ومش عارفين " Verb " To Be ، مش عارفين Verb " To Be " يا حضرة الناظر ، التعليم بينهار وأنت قاعد عادي كدة .
- يا مسعود أهدى شوية عندنا ضيوف ، مش كدة يا أخي .

ألتفت لوالدة يوسف .

- يا أهلاً وسهلاً بأغبي طالب شفته في حياتي ، أزيك يا حمار .

يوسف يرمقه بأشمئزاز .

- بتبصلي كدة ليه يا حمار .

حاول أن ينقض عليه ليبرحُه ضرباً ولكن منعه الأستاذ عصمت في اللحظة الأخيرة ، يُحاول مسعود التخلص من يد الناظر التي تُطوقه وتمنعه من الحركة ، جاهد ليركله بقدمه اليمنى لكن الأستاذ عصمت لم يعطيه المجال لفعل ذلك .

- يا مسعود مش كدة ، أنت المفروض راجل تربوي يا أخي .
- أنت مش شايف بيبصلي أزاي !!! إيييييه .
- يا مسعود ولدته قاعدة حرام عليك بقى ، المدرسة دي هتتقفل على أيدك يا أخي .

هدأ تدريجياً في حين أنَّ الأستاذ عصمت بدأ يُحرك يداه على صدر مسعود ليعود لصوابه ، قبَّلَ رأسُه في حنان مبالغ فيه مُردداً " أهدى يا مسعود ، أهدى "

- أستاذ مسعود ، أنا والدة يوسف ، وهو أبني الوحيد وكنت حابه أعرف رأيك فيه .

كلماتها كانت بمثابة تعويذة سحرية حولتُه إلى حالة العصبية المفرطة مرة أخرى .

- رأيي فيه أنه عيل زبالة ، وغبي ، ومتخلف ، ومينفعش يتقال عليه طالب علم أصلاً ، إإإإإإإيه .

- حرام عليكي يا مدام ، حرام ، أنا ما صدقت أنه هدي ، ليه كدة ليه ، يعني أنتِ بعد كل اللي عمله قدامك ده بتسألي على مستواه ، تفتكري هيقولك أنك مخلفة أحمد زويل مثلاً .

قالها الأستاذ عصمت في عتابٍ شديد .

- دول مش طلبه أصلاً ، التعليم باظ يا عصمت .
- عصمت !!!!

قالها عصمت بدهشة عارمة .

- أستاذ مسعود ممكن تهدى شوية وتقولي إيه مشكلة يوسف بالظبط .
- مشكلته أنه غبي ، علطول سرحان وبيرسم رسومات هبلة كدة زيه بالظبط ، مش بيركز ، ومش هينجح في حياته ، تصدقي بالله ، والله العظيم لحد النهاردة ما يعرف الفرق بين المضارع البسيط والمضارع المستمر ، قوليلي بقى حضرتك ده منظر طالب ، ها .
- طب حضرتك تنصحني بإيه ، أوديه لدكتور نفسي أو سلوكي طيب ، أنا مش عارفه أعمل إيه .

أجابها بملامح وجه من يمتص نصف لمونه .

- دكتور نفسي إيه وسلوكي إيه يا هانم، أنتِ بتتعملي معاه بالأسلوب ده في البيت ، والله ليه حق يبقى فاشل ومُشتت ، إيه الدلع ده كله .

أرتفعت نبرة صوته فبدت أكثر غِلظة .

- أبنك محتاج شدة ، قسوة ، معاملة ناشفة وهتلاقيه بقى زي الفل .
- بس الضرب ده ...

قاطعها .

- أحسن حل ، بس أحنا بنخاف نعمله إلا بتصريح من أولياء الأمور علشان محدش يشتكيني ونتحبس ويطلع كام أعلامي مش فاهم حاجة يقولك زمن الضرب أنتهي ، وهو مش فاهم حاجة أصلاً ، ولا تربوي ، إإإإبيبيبه .
- طيب ممكن تعتبر يوسف أبنك ، وتعمل فيه اللي يخليه يركز ويبقى منتبه ، أنا عاوزاه ينجح .
- يعني أفهم من كدة أني لو عملت الصح محدش هيزعل .
- لا .

- ولا حتى والده .
- والده متوفي .
- مش مهم متوفي ولا لا ، المهم هيزعل .
- لا مش هيزعل .
- بس كدة ، قدامي يا حيوان على الفصل ، وأنت جهز جوابات الفصل يا عصمت .

***

بعد يومين من لقاء الأستاذ مسعود بوالدته يوسف يقف في فناء المدرسة بالقرب من السور ، يولي وجهه شطر الحائط ، ذراعيه وصلوا إلى أقصى مداهم وهو يرفع شنطته المدرسية إلى أعلى ، على وجهه ظهرت علامات تلك الصفعات التي تلقاها ، هناك أثار خدش على رقبته فربما نشب مسعود أظافره في جلدِه أو ربما هي أثار أظافر أحد الطلاب وهو يحاول تخليص يوسف من يد مسعود الغاشمة ، عيناه امتلأت بالدموع لكن هذه المرة لم يملك فرض سيطرته عليها فنهالت على وجنتيه بتدفق ، أصر مسعود على أن يظل يوسف هكذا حتى أنتهاء اليوم الدراسي حتى يُعدل من سلوكه الشاذ ويصبح طالباً ذو همه ونشاط !!!!

" مس أميرة " فتاة رقيقة تحمل أسماً يتلاءم تماماً مع ذلك الكيان الذي يحمله ، ألقت بها أمواج الحياة المضطربه إلى تلك المدرسة بعدما أنهت دراستها الجامعية بكلية التربية ، إنسانة رقيقة لا ترتاب لحظة في أنها خُلقت من مشاعر وليس من طين ككافة البشر ، تمتلك من الملامح ما يجعلها مصدر أهتمام غير المتزوجين في أي مكان تحُطّ به ، عقيدتها تتلخص في أنه لا يوجد على وجه الأرض أي إنسان فاشل فقط هناك ثمة خلل أو ظروف تدفع الإنسان لذلك الفشل المؤقت لكن بمجرد أن يُدرك ذلك الخلل أو يعمل على تعديله سيُدرك حتماً مبتغاه ، أسلوبها الجاد الخالي من أي مُزاح جعل منها زميلة غير محببه لمعظم أفراد هيئة التدريس خاصتاً المدرسات اللائي تجاوزنا عِقدهم الرابع ، يكيدوا لها كُل الكيد لينهوا تعاقدها الذي لم يمر عليه عاماً كاملاً .

- يوسف .

لم يتحرك طَرْفُه ، فقط ظل مستمر في بكائِه الشديد .

- يوسف ، ممكن تبطل عياط وتبصلي .

لم يرفع رأسه ، مدت يدها ووضعتها على كتفه فبتعد عنها وتحاشاها كأنها الطاعون ، صوت الأستاذ عصمت جاء ليشق سكون وهدوء ذلك المكان ، ينادي على أميرة بصوت أجش لا ينُمُ عن خير ، أنتبهت إلى الصوت فوجدته يقف خارج مكتبه ، أشار إليها كي تأتيه في عُجالة شديدة ، فعلت ما أمرها به لتصتدم في النهاية بوجهه الممقتع .

- أنتِ بتعملي إيه مع الولد المشاغب ده يا أستاذة .
- بحاول أخرجه شوية من اللي هو فيه .
- والله ، أمممم ، طب هو الكانتين شغال ولا عم سمير قفل بدري وروح .

اعتلت وجهها أمارات الدهشة العارمة .
- مش فاهمه حضرتك تقصد إيه .
- الكانتين يا أبلة ، كانتين المدرسة علشان نصرف ليوسف كوباية لمون ساقعة تهديه .
- ليه الطريقة دي ، بلاش كدة .
- أنتِ هتعلميني كمان أتكلم أزاي حلو أوي الأداء ده ، يارب بس منساش أحطه في التقرير ، علشان كل واحد ياخد حقه .
- أستاذ عصمت ، سيبك مني وخلينا نتكلم في مشكلة يوسف .
- مشكلة يوسف !!!! إيه هو ماضي على نفسه شيكات وهيدخل السجن ولا إيه .

تجاهلت ما قيل لها بسخرية .

- يوسف كدة ممكن يدخل في حالة أكتئاب زي الزفت .
- الولد اللي أنت بتتكلمي عنه ده غبي و تفكيره محدود وحمار .
- أنا من ساعة ما جيت هنا يا حضرة الناظر وأنا حاسة أن يوسف ده مش عادي ، بيعمل حاجة مختلفة وأحنا اللي مش قادرين نفهمها .
- هو فعلاً بيعمل حاجة مختلفة ، بيسمع من منخيره وبيمشي على ودانه .

أنعقد حاجبها فهي لم تتوقع ذلك الرد العقيم من ناظر المدرسة .

- أستاذة أميرة ، أحنا بنقوم سلوك الولد ده وولدته عارفه ، وياريت تخليكي في شغلك
- كدة مش بتقوم سلوكه ، كدة بتحوله لمجرم عاوز ينتقم من كل اللي حواليه .

حكَ ذقنه قبل أن يُجيبها بسخرية عارمة .

- على فكرة أنا في التربية والتعليم من وأنتِ لسه بتلبسي بامبرز ، بعدين أنتِ تفهمي إيه في علم النفس ولا النفسية ، دا أنتِ يادوب مدرسة تربية دينية .
- عارف يا حضرة الناظر ، أنا مبقتش مستغربة من اللي أحنا بقينا فيه علشان حضرتك وناس كتير أوي زيك بقى هو ده رأيهم في مادة الدين اللي حتى مش بتضاف على المجموع وهي في الأساس منهج حياة ، دا طبعاً بعيداً بقى عن أني أساساً خريجة علم نفس .

احتقن وجهه بشدة قبل أن يصرخ مُردداً أسم " عم سمير " الذي أتى إليه في عُجالة شديدة .

- خير يا حضرة الناظر .

بتحدي وإصرار لا ريب فيهم .

- الدرج التاني بتاع المكتب بتاعي هتلاقي فيه الكراسة بتاعت الولد المشاغب اللي أسمه يوسف اللي أنت طلعت جبتها من الفصل من كام يوم ، هتفك الدبوس بتعها وتلزقلي كل الورق والرسومات اللي فيها على لوحة الإعلانات بتاعت المدرسة وتكتب فوقيها ، لوحات أغبى طالب في المدرسة وتكتب تحتها الفن البوهيمي ، علشان يتعلم الأدب ويبطل يرسم الرسم المتخلف اللي شبه ده .

أردف بأسلوب أستفزازي مُقيت " مبسوطة يا أبلة " ، ترمقه بغضبٍ فشل أن يتوارى خلف ملامحها الهادئة .

ولى لها ظهره وأنصرف في لا مبالاة .

***

في صباح اليوم التالي تحولت المدرسة إلى بؤرة من السخرية العارمة مركزها تلك الرسومات التي تفترش لوحة الإعلانات المدرسية المنقوش أسفلها " رسومات من الفن البوهيمي تعود إلى أغبى طالب في المدرسة ، يوسف محمود حسين " أخذ الطُلاب يرشقون العبارات اللاذعة ، الساخرة كلما رأوا يوسف أمامهم ، ينعتوا فنِه بالفن العقيم الذي لا فائدة منه ، فن بائس ، مُشرد ، لا ينتمي إلى أي عائلة من عائلات الفن من الأساس ، هي مجرد مجموعة من الخطوط الطولية والعرضية الملونة بألوان عدة ، تتقاطع في نقاط لا حصر لها ، رسومات غير مفهومة تُشبه خريطة الأوعية الدموية في جسم الإنسان .

يتلقى الأستاذ عصمت التهاني من العاملين الكاذبين ، المنافين ، الذين لا يُريدون سوى إرضاءه ليكونوا في حرمِه آمنين ، أكدوا له هؤلاء الأفَّاقين ، المخادعين أنَّ هذه هي الطريقة الأنسب لردع ذلك الطالب المُشتت كثير الغباء .

أوصى الأستاذ عصمت مدرس التربية الرياضية بأن يسخر من يوسف ورسمِه أثناء توليه قيادة الطابور المدرسي ، فعل روبي ما أُمِرَ به ، أَخَذَ يسخر من تلك الرسومات واللوحات في ميكروفون المدرسة وسط ضحكات هسترية أكثرها من هؤلاء الطُلاَّب الفاشلين الغير مسؤولين بالمرة ، لم يتردد الأستاذ روبي بفعل ما أمرَّ به الناظر فلديه من الخدمات التي يحتاجها منه ما يجعلُه عنده حَفِيظٌ أمين .

حالة من الفوضى تجتاح المدرسة فور سماع دوي جرس " الفسحة " ، طُلاَّب في حالة من الهياج العصبي ، يركضون دون هدف ، بعضهم يمارس رياضة " العُقلة " على عارضة المرمى وأخرون يحاولون الفرار من خرطوم أستاذ شريف بسبب شجار نشب بينهم وشَرَعَ هو في تصفيته ، لاذ يوسف بمكان هاديء يبتعد كل البُعد عن تلك الغوغائية التي تلتهم الجميع ، جلس على الأرض ، ضمَّ ركبتيه إلى صدرِه ثم أخرج كراسة رسم جديدة ومجموعة من الأقلام ، شَرَعَ في رسم لوحة جديدة ، أقترب منه الأستاذ روبي وبصحبته أثنان من الشرطة المدرسية ، يتحركون معه أينما ذهب وكأنهم رقيب عتيد ، يتمكن عن طريقهم من الأمساك بأي شخص يخالف قوانين المدرسة ، يقتادونه بعد ذلك إلى المقشرة لينال ما يستحق من عقاب ، يوسف لم يعيرهم أي أهتمام ، سخر منه روبي وتساءل عما يفعل " بيكاسو " المدرسة ، ضحك طلاب الشرطة المدرسية في سخرية واستهزاء مُبين ، بزغ من يوسف بعض الضيق لكن ظلت عيناه تعانقان الأرض لا يصعد بطرفِهما ليرمقهم ، الشيء الذي أثار غضب الأستاذ روبي .

- أنا مش بكلمك يا غبي أنت .

أخذ طالبان الشرطة المدرسية وضع الأستعداد للأنقضاض على يوسف بعدما يتلقوا أوامر مباشرة من الأستاذ روبي .

- أستاذ روبي من فضلك .

نظر تجاه الصوت ليجدها " مس أميرة " ، تتحدث إليه في وكار وهي ترتدي جناحين ناصعين البياض كأجنحة الملائكة الكِرام .

- أيوة يا أستاذة .
- ممكن تسيبلي يوسف شوية .

نظر ليوسف قبل أن يصدر صوت غريب بفمه غير مفهوم .

- حاضر يا أستاذة ، علشان خاطرك والله .

نظر حوله كقبطان سفينة يبحث عبر نظارته المعظمه عن أرضٍ يابسة ، وجه كلماته إلى طالبين من الشرطة المدرسية الذين يحيطون به مشيراً تجاه سور المدرسة الخلفي .

- روحوا أمسكولي العجل اللي بيهرب من على السور ده علشان هيضرب .

أقتربت " مس أميرة " من يوسف الجالس على الأرض ، جثت على ركبتيها أمامه ، سألته بصوتها الرخيم .

- يوسف ، مالك زعلان كدة ليه ؟؟

لا يُجيب عليها فقط يُطأطأ رأسه وهو بادي الحزن .

- أنت زعلان علشان اللي عمله معاك الناظر ؟

أومأ برأسه ممتعضاً .

- عارف هو بيعمل كدة علشان شايف أن رسمك وحش أوي أنما أنا شايفة أنه رسم جميل ومعبر وعاوزه كمان لوح تانية من رسمك ده علشان أحطها في أوضتي .

رفعه رأسه ببطء ، نظر لها نظرة طويلة جامدة مفعمة بالبلاهة .
- إيه يا يوسف ، مش عاوز ترسم رسمه لمس أميرة حبيبتك .

مازال ينظر لها كمن يشعر بوحدة قاتلة ، يشكو لها حاله السيىء بنظرات عيناه العميقة التي تفضح حالته النفسية الغير مستقرة .

- أكلم يا يوسف ، عينك فيها كتير ، قولي مالك ، مش عاوز ترسملي رسمه ليه .

استنشق كمية لا بأس بها من الأكسجين قبل أن يتحدث بشيء من العسر .

- دا مش رسم أصلاً ، ولا دي تنفع تبقى لوح فنية ، محدش فاهم حاجة .

أنعقد حاجبيها عجباً .

- دا مش رسم أصلاً !!! ، يعني الأشكال دي ليها معنى عندك .

زحزح نفسه بعيداً عنها فأقتربت هي منه في إصرار .

- يوسف ، علشان خاطري فهمني ، أنا من ساعة ما جيت هنا وأنا حاسة أنك مختلف وبتعمل حاجة مختلفة .

أجابها بفتور .

- دي خرايط لمعظم مدن القاهرة .
- إيه !!!! يعني إيه الكلام ده .

- يعني دا مش رسم ، دي خرايط من على Google Maps لمعظم مدن القاهرة زي حلوان والمعادي ووسط البلد ، الخطوط الطويلة دي طرق وشوارع ، أمام النقط الكبيرة شوية دي الملونة يا أمَّا مباني مهمة يا أمَّا ميادين رئسية .

أبتلعت ريقها وعيناها توميض بفرط هول ما تتناوله أذُنها .

- وأنت بترسمها أزاي يا يوسف .
- بدخل على النت ، على خرايط جوجل يا أمَّا من موبيل ماما على الخرايط بتاعت GPS ، بتفرج عليها .
- يعني بترسمها من خيالك ولا بتنقلها .
- لما بغمض عيني بحس أني شايفها قدام عيني ، جاتلي فكرة جبت ورقة وقلم وبدأت أرسمها وأطابقها بالكمبيوتر لحد ما أتظبطت معايا بالظبط ، والخريطة اللي أحفظها وأرسمها صح مش ممكن أنساها تاني أبداً .
- على كدة بقى أنت حافظ أسماء الشوارع .
- وأقدر أروح أي مكان في أي خريطة أنا رسمتها .

فقدت أميرة تركيزها وبدت مُشتت شأنها شأن يوسف ، لم تتوقع تلك المفاجئة ، لم يخونها شعورها الحَصِيف بأن ذلك الطفل غريب الطوار يُقدم شيئاً مختلفاً ، أردف يوسف .

- مفيش حد فاهم حاجة حتى ماما ، رحتلها مرة بخريطة للمنطقة بتاعتنا ضربتني بالشبشب وأتصلت بخالي جابتُه ، أشتكتلوا مني وقالتله أنها تعبت من اللي بعملُه ، قالتلُه أني أنا مش بذاكر وعمال برسم ، خالي قعد يزعق جامد وخد مني الرسم وقطعوا كلُه وقال لي لو مذاكرتش هطلعك من المدرسة وهشغلك صبي ميكانيكا .

انتابها حزن الجياد الجريحة وشملها همٍ عميق على تلك الطريقة التي تتعامل بها الأسرة والمدرسة وهيئة التدريس مع تلك الموهبة الجبارة ، ضاعت صورة التربية القويمة من مخيلتها وأدركت سر أنفلات ذلك الجيل ، لماذا لم يعين المسؤولين لجان تمر على المدارس لأستكشاف المواهب لوضعها في محميات طبيعية خوفاً من تدنيثها !!! من يمتلك موهبة أو ذكائاً لم يتخلى عنه ، لكن من الممكن أن يُستغل في مكانِه الغير صحيح طبقاً لما وصلت إليه أخلاق ذلك الشخص الذي يحمله ، الدولة ثم نحن من نجني ثمار هذا !!!! ، أردف يوسف بحرقه من يتجرع عَلقَمَ الشَّرَاب .

- أنا بكره المدرسة وبكره ماما وبكره المدرسين ، محدش فاهمني ، محدش بيحبني ، أنا بكره كل الناس .
- لا يا يوسف مفيش حد بيكرهك وأنت مينفعش تكره حد ، هما بس خايفين عليك زيادة عن اللزوم .

- لا بيكرهوني ، مس إيمان وأستاذ سنباطي وأستاذ روبي وحتى أستاذ عصمت ، كلهم بيكرهوني وبيقولوا عليه غبي وفاشل ومش بركز في الفصل ومحدش عمره سأل أنا مش بركز ليه ؟؟

بأهتمام زائد .

- طب أنا هسألك أهو ، مش بتركز ليه يا يوسف ؟؟
- علشان المناهج بتاعتنا رخمة وغلسة ومش بتعجبني .
- ليه يا يوسف ؟؟
- كدة ، الأستاذ سنباطي كان بيدينا درس من كام يوم أسمه " محاكمة الأشجار " الدرس ده بيكلم عن أن الأشجار بتحس وبتتألم لما حد بيشد ورقها ، وأعتقد أننا بقينا في سن مش محتاجين فيه لدرس زي ده ، النت والتكنولوجيا اللي بقت في كل بيت ومع أي حد خلت اللي في سننا يبقى تفكيره مختلف ، يعني ممكن ناخد دروس عن أضرار السجاير ، المخدرات ، عن الأسفاف اللي بقى في كل حاجة حولينا ، حاجة من اللي بيشفها اللي في سننا ، أنما درس الأشجار ده عاوز حد في أولى أبتدائي مش أولى أعدادي ، الولاد اللي في سننا شايلين مطاوي يا مس أميرة مش لسه هيدوروا يقطعوا أشجار ولا لا ، الدروس لازم تبقى أعمق من كدة .
- أنت جبت الكلام ده منين يا يوسف .

دا لسه حاجة بسيطة يا مس ، دا في درس تاني أسمه رحلة الفراشات ، بيكلم عن رحلة لمجموعة فراشات بتعرفنا معالم مصر اللي أحنا حفظنها من قبل ما ندخل أعدادي عن طريق النت والتلفزيون ، حتى الكمبيوتر بندرس فيه وحدات الأدخال والأخراج والكيبورد وقائمة Start في وقت وصلنا فيه للتاب والأندرويد والأبلكشين والبرمجة ، طب على الأقل ندرس البدائيات ، أنا مش بكلم كتير علشان عارف أن محدش هيفهمني ومش بركز لأن الدروس وطريقة التدريس كلها حفظ وأنا بكره الحفظ ، عاوزين نتعود على الفهم علشان نطلع جيل مبدع نفيد البلد دي بجد .

أرتفع حاجبيها عجباً وتدلى فكها السفلي وتركت ثغرها مفتوح عن أخرُه من فرط عمق إجابات ذلك الطفل الذي لايزال في الثاني عشر من عمرِه .

- تصدق أنك عندك حق ، كل المدرسين في الدروس الخصوصية بيعتمدوا على أنهم يحفظوا المواد للطلبه ، بالذات الثانوية العامة !!!

صوبت عيناها تجاه لوحة الإعلانات المعلق عليها لوحات يوسف ، نهضت في تحدي وهرعت إليها بعدما سحبت يوسف بقوة أجبرته على السريان خلفها .

وقفت أمام لوحاته التي تفترش لوحة الإعلانات ، أشارت إلى واحدة بطريقة عشوائية ، لوحة مليئة بخطوط طوليه وعرضيه مائلة متقاطعه وكأنها شبكة سكة حديد .

- دي خريطة إيه ؟؟

رمقها يوسف بنظرات مليئة بالتركيز الشديد ، ألتمعت عيناه بتلك اللمعة المميزة قبل أن يُخبرها بثقة .

- دي خريطة لمنطقة المعادي .

أخرجت هاتفها الخلوي " Smart Phone " وعن طريق تطبيق الخرائط أحضرت خريطة المعادي ، ظلت تنتقل بعيناها بين شاشة الهاتف والخرائط المعلقة وملامح الدهشة تتزايد على وجهها رويداً رويداً .

- دي هي بالظبط ، بنفس أتجاهات الشوارع ، تعرف أسماء الشوارع دي يا يوسف .
- معظمها .

أشارت إلى لوحة أخرى أقل منها في الخطوط المتقاطعة وأردفت .

- ودي يا يوسف ؟؟

رمقها وعيناه تلتمع تلك اللمعة المميزة ثم أجابها بصوتٍ هاديء .

- حلوان .

ظهرت عليها أثار تلك الأجابة .

- يوسف ، بتعرف تعمل خرايط إيه تاني .
- معظم مدن القاهرة .
- القاهرة بس صح .

أماء برأسِه بمعنى " نعم " ، خرج في تلك اللحظ ناظر المدرسة من مكتبة القريب جداً من لوحة الإعلانات ، خرج يتمطع وكأنه أستيقظ لتوه من نومٍ عميق دام لساعات ، اصطدمت عيناه بيوسف وأميرة فلتوت ملامحه وهرول تجاههم في تحدي ، أقترب منهم وبأسلوب ساخر أراد به الأستهزاء منهما .

- هو " فان جوخ " سايب الفسحة وبيشرحلك أخر لوحاته الفنية ولا إيه .

رمقته بنظرة نارية قبل أن تُجيبه في حدة بالغة .

- آه بيشرحلي لوحاته الفنية وعلى فكرة بقى هو أحسن وأفيد ميت مرة من " فان جوخ " اللي أنت فرحان بيه ده وبكرة تشوف ، تعالى يا يوسف .

سحبته من يداه وأبتعدت به وسط نظرات التوعُّد التي تملأ وجه الأستاذ عصمت .

دخلت به إلى أحدى الفصول الخاوية من الطُلاب ، طلبت منه أن يجلس على أحد المقاعد الخشبية ويرسم لها خريطة تضم كل شوارع منطقة المعادي ، في البداية تردد في فعل ذلك لكن مع الأصرار الشديد جَلَسَ على أحد المقاعد ثم أمسك بالقلم ، بهدوء وبتركيز عميق راح يرسم خطوط طولية وعرضية متقاطعة حتى أنتهى من رسم الخريطة ، لوَنَ معالمها المهمة من ميادين وسفارات تقع هناك ثم سلمها إلى مس أميرة بعد نصف ساعة تقريباً ، رمقت اللوحة في تعجب ودهشة عارمة ، قارنتها بتلك الموجودة على تطبيق الخرائط على هاتفها الذكي فوجتها متطابقة تماماً .

- أنت .... ، أنت عبقري ، أنت أذكى طالب أنا شفته في حياتي ، أنت عقلك مش قادر يتماشى مع المناهج العقيمة بتاعتنا ، أنت عبقري ، سامع ، أنت عبقري ومش هيجي زيك تاني أبداً ، أوعى تصدق حاجة غير كدة ، أنت هتبقى حاجة كبيرة أوي ، أوي يا يوسف ، أنت عبقري ، عبقري وهما اللي أغبية والجهل معشش في دمغهم ، أنما أنت عبقري ، عبقري .

***

بعد مرور خمسة أيام .

موظف قصير ذو رقعة صلعاء تتوسط رأسه ، يدخل إلى مكتب الأستاذ عصمت ، ظهره قد أنحنى أثر تزحزح ذلك الغدروف عن موضعه في تلك الفقرات التي تستقر في أخر ظهره ، صوته يُشبه صوت إستيفان روستي حينما يؤدي دور الرجل اليهودي ويُنادي (يا راشيل) .

- صباح الخير يا أستاذ عصمت .
- صباح الخير يا أبو العباس ، خير .
- دلوقتي أستاذة أميرة مدرسة التربية الدينية مبتجيش بقلها خمس أيام ، إيه العمل ؟؟
- أديها فرصة لحد بكرة لو غابت طلعلها جواب فصل نهائي بعد بكره ، تبعتُه على الوزارة والسبب المكتوب فيه غياب موظف حكومي ستة أيام متصلة عن محل عمله دون وجود سبب أو رصيد أجازات يسمح بذلك .

ابتسم ذلك القصير وهو ينظر للأستاذ عصمت من فوق عويناته بخبث .

- أنا بقول نكلمها .

قاطعه الناظر في عنف .

- متكلمش حد أسمع اللي بقولك عليه وخلاص .
- أمري لله .

***

أستاذة أميرة تقف أمام ناظر المدرسة بعد مرور ثلاثة ساعات عن لقائه بهذا القصير .

- أستاذ عصمت .

بضجر وضيق شديد .

- نعم يا أستاذة ، خير .
- أنا عارفه كويس جداً أنك أنت مش طايقني بس عاوزين نحط ده كله على جنب وتسمعني علشان أنا جيالك في موضوع مهم .
- خير يا اللي غايبة عن محل عملك بقالك خمس أيام متصلة ، دي فيها جزا محترم .
- مش مهم ، المهم يوسف .
- أشمعنى .
- عبقري بأعتراف مستشفى الأمراض العقلية .

أنفجر الأستاذ عصمت في الضحك لدرجة أن كرشه المتدلي أمامه كبلونة مليئة بالماء بدأ يهتز بصورة ملفته للأنظار ، لاحت أسنانه التي عبثت بها السجائر عبث طفلة سادية بدمية من القطن ، قهقه لدرجة أنه سعَل وكأن رئتيه أنتهزت تلك الفرصة لتُزحزح جزءاً من دخان السجائر الراكض بها .

- أنا مقلتش حاجة بضحك يا حضرة الناظر .
- يوسف عبقري ، وبشهادة مستشفى المجانين ، دا إيه الإشراق ده .

أحتد صوتها قليلاً .

- يوسف مسجل في أختبارات بينيه للذكاء نسبة عالية جداً .

أحتد صوته هو الأخر .

- مين ده اللي عبقري يا أستاذة ما تفوقي للي بتقوليه ، أغبى طالب في مدرستي أزاي يبقى عبقري ، دا بينجح بالعافية ، أنا اللي عارف مين اللي غبي ومين اللي ذكي مش تقوليلي أختبارات بُني ، قال بُني قال .
- أختبارات بينيه يا حضرة الناظر ، ألفريد بينيه ، عالم النفس الفرنساوي المشهور وأول من أسس منهج لتحديد ذكاء الأنسان .
- عليه الطلاق من بيتي لو بُني بتاعك ده رائيه كده في يوسف يبقى أنا بفهم أحسن من عشرة زيُه .
- يا فندم مستشفى الأمراض العقلية هي اللي أقرت بده .
- ما هي مستشفى المجانين عاوزاها تقول إيه يعني ، أي حد عاقل بالنسبة ليها عبقري ، ثم أن يوسف عبقري أزاي ، عبقري في إيه الولد الغبي ده .
- في الخرايط والطرق .
- نعم !!! يعني إيه في الخرايط والطرق .
- يعني حافظ معظم خرايط وطرق وشوارع المُدُن اللي في خرايط محافظة القاهرة أو يعني معظمها .

أنفجر في الضحك ثانيةً لكن هذه المرة دفعته قهقهته للضرب بكفيه على زجاج المكتب .

- حافظ الخرايط والطرق .

مستمر في ضحكِه وهو يُردد بصوت أخطلتط فيه القهقه مع الكلمات .

- عارفة يا أميرة كان معايا قرشين حلوين لو كنتي عرفتيني الموضوع ده من بدري كنت جبت تاكسي وشغلتُه عليه بقى .
- الموضوع مش بالسطحيه ولا بالتفاهه دي .
- يعني كنتِ مُتغيبة عن عملك علشان تودي الغبي ده مستشفى المجانين يعمل أختبارات ذكاء .
- أيوة .
- ومن غير علم ولي أمرُه .
- مش مهم ، أنا بعمل الصح .
- أنتِ متحولة للتحقيق يا أستاذة ، أتفضلي .

أشار بيده تجاه الخارج أي عليها الخروج من المكتب حالاً مطروده ، أحتقن وجهها ، جدّت في مشيتها نحو الباب وأبخرة اللهب تتصاعد من أنفها فلا داعي لمزيد من إهدار الكرامة .

***

في اليوم التالي

أستدعى الأستاذ عصمت والدة يوسف ليُخبرها بما حدث ، قصَّ عليها ما فعلته أميرة بعدما أضاف التحابيش والبهارات اللازمة التي دفعتها للأشتعال ثم أقسمت أنها لن تتنازل عن تمزيق جسدها أرباً فور ما تلتقي بها ، أضاف الأستاذ عصمت أنا أخطأت خطئاً فادحاً عندما أخذت يوسف إلى مستشفى الأمراض العقلية لقياس نسبة ذكائُه دون علم أهله أو مدرسته ، هذا سيُدخل الولد بلا نقاش في أكتئاب حاد بعدما يظنُ من داخله أنه مريضاً نفسياً وغير سوي ، أخبرها بأنه أوقفها عن العمل وتم تحويلها فوراً للتحقيق وعلى والدته إتخاذ قراراً برفع شكوى إلى السيد الوزير بشأن ما حدث ، أستدعى الأستاذ عصمت أميرة بعدما تأكد من أنَّ نابي والدة يوسف قد ظهرى وهي الآن على أتم أستعداد لأمتصاص دم تلك المعلمة الحمقاء .

بمجرد أن عبرت أميرة باب مكتب الناظر أنفجرت بها والدة يوسف كأنبوبة غاز تعرضت لدرجة حرارة مرتفعة .

- يا مدام أفهمي ، يوسف أبنك عبقري ، أنا عملت كدة لمصلحته .
- مصلحته !! ، مصلحته أنك تروحي بيه مستشفى المجانين .
- نسبة الذكاء وأختبار بينيه مش بيعتمد إلا من هناك علشان لازم مستشفى حكومي .
- لا بنيه ولا بفتيك ، سيبي الواد في حالة يا أبلة .

النقاش بهذه الطريقة لن يثمر عن شيء ، لا حل سوى الإقناع بأسلوب هاديء .

- يا مدام ممكن تسمعيني لوسمحت بهدوء شوية .
- أتفضلي .
- يوسف أبنك عنده موهبه مش موجوده عند حد ، يوسف في أختبار بينية الصورة الخامسة سجل أعلى درجات في الأستدلال اللفظي ، البصري ، الكمي ، والذاكرة ، يوسف حصل على مجموع درجات ١٨٠ درجة ، يعني دخل في شريحة الشخص العبقري ، بس هو مش قادر يتماشى مع المناهج بتاعتنا لأنها مناهج أقل من مستواه الفكري بكتير وده السبب اللي بيخليه يسرح علطول ومش مهتم .
- أنتِ بتتعدي بالقول على مناهج الوزارة ، دي لوحدها هتفصلك فصل نهائي .

تجاهلت أميرة كلام الأستاذ عصمت ، مدَّت يدها بورقة موثقة من المستشفى تُثبت صحة كلامها ، تجولت والدته بعينيها بين سطور الورقة قبل أن تُجيبها بلا مبالاة .

- أنا الكلام ده كله ميهمنيش ، اللي أنتِ بتقوليه ده مش هينجحه .
- ينجحه إيه !! بقلك أبنك عبقري أفهمي بقى .

تَدخل ناظر المدرسة في الحديث .

- العبقري ده يا أستاذة يطلع الأول كل سنة .
- اللي بيطلع الأول ده شخص صمّام ، بيحفظ المناهج مش بيفهمها .
- دي تاني غلط ليكي يا أستاذة ، غلطتي مرة في المناهج ودلوقتي في الطلبة الأوائل ، كل ده هبلغه للوزارة على فكرة .
- بلغ اللي عاوز تبلغُه يا حضرة الناظر ، أنا بقول رأيي ، المناهج بتاعتنا دي بتنمي عند الطالب الحفظ والصم مش بتنمي عنده الفكر والإبداع ، كل مدرسين الثانوي اللي عاملين إعلانات ليهم على الحيطان في الشوارع بيعتمدوا على أنهم يحفظوا الطلبه مش بيفهموهم علم ، محدش بيفهم حد علم ، كلُه بيحفظ ، مفيش أساس ، يعني مش كفاية المناهج ، لا الطريقة كمان غلط .
- بقولك إيه ، متبوظيش دماغ الواد ، من هنا ورايح ملكيش دعوة بيه ، يا أمَّا ورحمة أبويا لكون عملالك محضر في القسم وشكوى في الوزارة .
- على فكرة ، أنا دلوقتي بس عرفت هو ليه يوسف مش عاوز يكلم مع حد فيكم ، عموماً أنا هقف جنبه وهساعده لحد ما أطلع موهبته وعبقريته دي للنور ، سواء أنتِ بقى موافقة أو لا ، هساعده علشان أنا فاهمه يعني إيه طفل يحصل على ١٨٠ درجة في أختبار للذكاء ، علشان أنا تخصصي علم نفس أصلاً والوزراة وزعتني على مدرسة أعدادي مفهاش علم نفس فشتغلت مدرسة تربية دينية ، فأنا هساعد يوسف غصب عن أي حد .

ولّت لهم دبُرها وانصرفت في تحدي .

***

أستاذة أميرة ترتشف من كوب العصير الذي قدمُه لها مكسيكي ، تضع الكوب على المنضدة ثم تتحدث إلينا في براءة تامة .

- بس هي دي القصة بتاعت يوسف اللي حبيت أني أضفها للرواية .
- تمام ، طب ممكن أسألك سؤال بما أني الكاتب يعني .
- أتفضل .
- أنتِ عاوزة تقولي إيه من القصة بتاعت يوسف دي .
- عاوزة أقول أن في عقول كتير أوي تُحترم في مدارس مصر وفي مصر كلها بس للأسف محدش حاسس بيها ، المناهج بتعتنا بتفرمهم وسط باقي الطلاب وده في الأخر بيصب في المجتمع لأن العقلية دي لو أستغلناها صح أول من هيستفيد منها هي بلدنا ومجتمعنا ،،. في دراسات كتير أوي بتأكد أن الطفل المصري ضمن أذكى أطفال العالم بعد كدة بيحصله أنهيار بسبب مناهجنا أو أسلوب تدريسها اللي بيعتمد في المقام الأول على الحفظ ، دا غير أن التعليم بقى مهزله ، والدليل سباق مدرسين

الثانوية العاملة كل سنة وأعلاناتهم اللي مغرقة حيطان الشوارع طول ما أنت ماشي " رسول الكيمياء ، عالم الفزياء ، إذا أردت الحصول على الدرجة النهائية فبادر بالحجز مع مسيو .... " الموضوع بقى تجارة وربح أكتر منه رسالة وعلم وهدف ، الناس دي حرام ينطبق عليها شعر أحمد شوقى " قُمْ للمعلّمِ وَفِّهِ التبجيلا * كادَ المعلّمُ أن يكونَ رسولا " ، عارف ليه حرام لأن الناس دي بتحفظ الطلبه اللي بتجلها المناهج علشان يجيبوا درجات كبيره فيبقوا دعاية ليهم بعد كدة ، الناس دي مش بتعلم جيل فحرام نقول عليهم معلمين .

- كل الكلام ده كويس بس هيبقى أحسن لو طرحتي حلول ، أنتي كدة بتعرضي مشكلة بس أنما مش بتعرضي حل .
- أنا عندي أفكار .
- تقدري تعرضيها من خلال الرواية .
- أولاً لازم يتعمل أختبارات IQ لكل الطلبة في أبتدائي وأعدادي تحت إشراف ناس متخصصة بجد علشان ننتشل الطلبة اللي ذكائهم عالي واللي بيركبوا الطابور زيهم زي الطلاب العاديين ، ويتعملهم مدارس خاصة بيهم أو فصول خاصة بيهم بمناهج مختلفة عن مناهج الطلبة العاديين ، كل واحد عنده موهبه لأزم ننميها ، اللي بيحب الكمبيوتر ياخد كورسات ودورات فيه حتى ولو على حساب الوزارة ، لازم ننمي عنده الحته اللي بيحبها ، التخصص أنا مؤمنة بالتخصص أوي علشان الطلبة متتحولش لكائنات صمّامه بتحفظ وتدش في الأمتحانات وبس ، العضو الذي لا يعمل يضمر ، وبالأسلوب ده عقلهم مش بيشتغل خالص وهيفقدوا مواهبهم ، ثانياً لازم يبقى في وعي ، أزاي نتعامل مع العقول الراقية اللي فوق مستوى الذكاء العادي علشان ممكن بجهلنا نقضي عليها ، ثالثاً لازم نستغل خبرات الأخرين ، في قاعدة كنت قرأت عنها بتقول أضف إلى عمرك أعمار الآخرين ، ودي معناها أن في ناس كتير عندها خبرات كونتها في سنين كتير من عمرها ، أنا بقى لو أستفدت بيها خبرتي ممكن توصل لألف سنة وأنا لسه في بداية عمري ، مش لازم نجنب الخبرات ، لازم نستفيد منها ، رابعاً لازم نشجع أي حد يحاول يعمل أي حاجة حتى ولو فشل علشان يحاول فيها تاني وتالت ورابع لحد ما يوصل لأحسن حاجة ، سنة ١٩٥٢ حاول هيليري أدمون تسلق قمة أفرست لكنه فشل وجُرح بجروح خطيرة أقعدته في العناية المركزة لشهور لكن أول ما خرج فوجيء أن مؤسسة رجال ونساء الأعمال في بريطانيا بتدعوه على حفل أقيم خصيصاً لتكريمه على مُحاولتُه بس تسلق الجبل بغض النظر عن فشله أو نجاحه ، بعدها بفترة قليلة أوي قدر هيليري أدمون من تسلق قمة أفرست وأصبح أول شخص في التاريخ يعتلي تلك القمة ، فالتشجيع حتى في حالة الفشل حاجة مهمة أوي أحنا مفتقدنها .

غمغمت في هدوء .

- بصي هو كلامك جميل ووجهة نظر تحترم بجد ، أنا إن شاء الله هصغها بطريقة جميلة بحيث أنها توصل للناس ، وهحاول أن أوصل يوسف لحد في الأعلام علشان موهبته تشوف النور .
- ياريت بجد ، ومش يوسف بس ، أي يوسف موجود في مصر .
- إن شاء الله .

ابتسم ذلك الملاك الصغير فدقَ قلبي خلف ضلوعي تلك الدقات التي أعرفها جيداً ، ربما سأتواصل معها بعد ذلك ، ربما ستأخذني فكرة الرواية إلى فكرة شريك الحياة دون أن أدري.

***

مرَّ علينا وقت طويل فبدأت أشعر بآلام في ظهري ، يصرخ مطالباً بقسطاً من الراحة ، نظرت إلى محتوياتي التي جمعتها من قلب شارع باب البحر ، أعتقد أنها كفاية لكتابة الجزء الأول من المجموعة القصصية باب البحر ، شكرت مكسيكي بحرارة ووعدته أنني سأتي إليه مرة أخرى لأستكمال الجزء الثاني من مجموعتي المأخوذة عن أحداث واقعية من قلب الشارع المصري ، إذا بهاتف مكسيكي الخلوي يصرخ زاعقاً من بعيد ، أتَىٰ به ، أنه صديقاً له يدعى " أحمد " ، نظر مكسيكي في شاشة الهاتف ثم ضرب على جبهته بقوة فانتابني قلق مريب .

- في حاجة يا مكسيكي .
- أنت كدة خلصت ؟؟
- آه بس قولي في إيه .
- أصل دا أحمد .
- مين أحمد ؟؟
- أحمد ده صاحب أغرب قصة ممكن تسمعها في التاريخ ، اللي أنت سمعته ده قصة وقصة اللي هتسمعه من أحمد ده قصة تانية خالص ، حوار تاني .
- خلاص خليه يجي الأسبوع اللي جي علشان أبدأ بيه الجزء التاني إن شاء الله " باب البحر ٢ " .

أبتسم مكسيكي ثم أجابَ على مدغشقر ليُخبره بذلك .

تمت بحمد الله .

إلى اللقاء في الجزء الثاني

باب البحر ٢

شكر خاص إلى الرجل الخلوق المُهذب الذي ساعدني كثيراً في هذا العمل الأدبي المتواضع ، شكراً " مكسيكي "